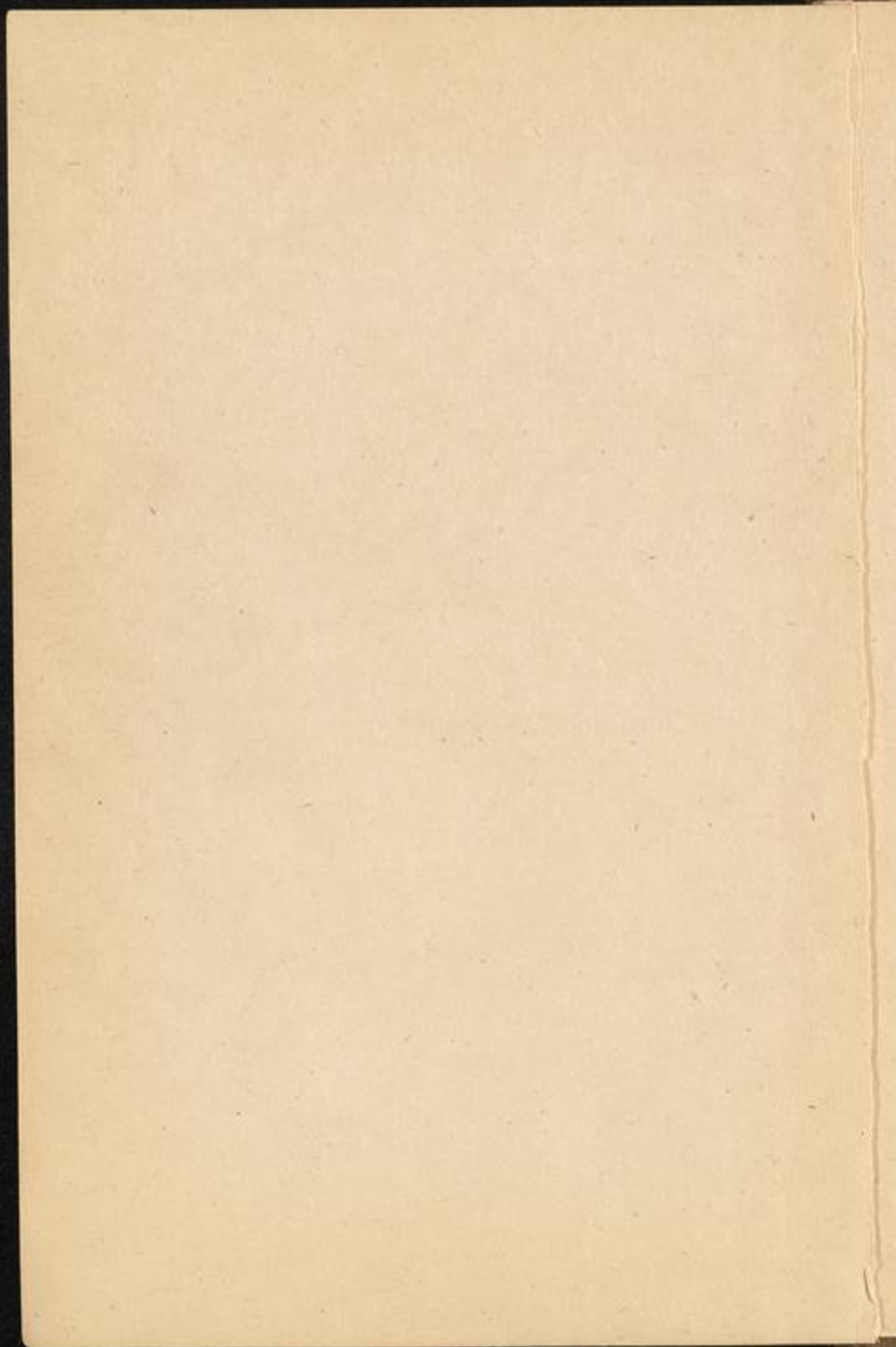
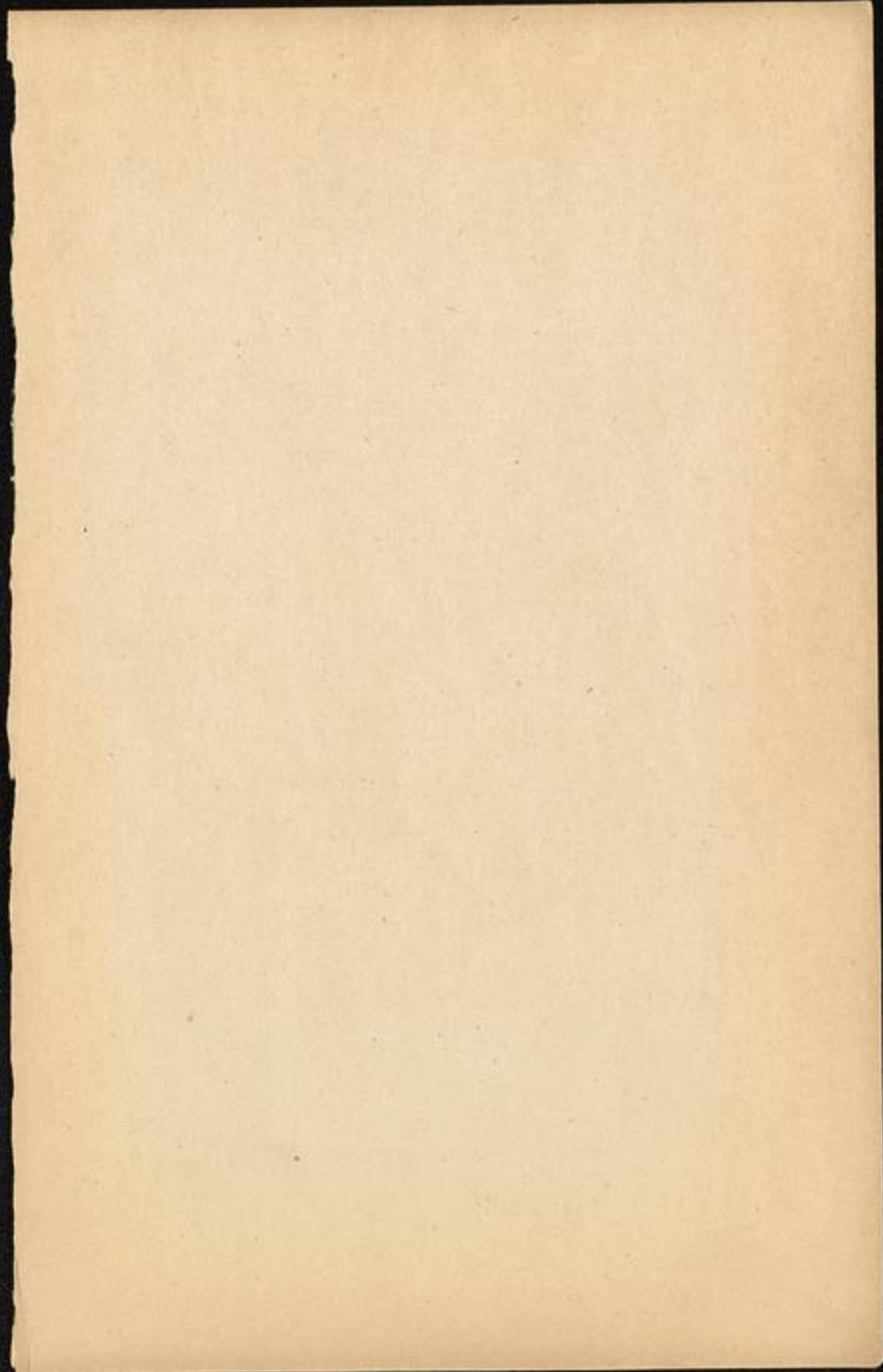


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







توفيق الحكيم

عصفور من الشرق

الطبعة الثالثة



الناشر: مكتبة الآداب بالجاميز تليفون ٤٢٧٧٧

القاهرة

مطبعة التوكل بالجاميز

ALIBULIO ١٩٤٣
VTBSEVINU
V8A881

893.7H127

X

AS-32141

COLUMBIA
UNIVERSITY
LIBRARY

كتب توفيق الحكيم

التي نشرت في اللغة العربية

الطبعة الاولى :
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
الطبعة الثانية :
مطبعة المعارف عام ١٩٣٦ } محمد

(مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤) } شهر زاد

الطبعة الاولى :
(مطبعة مصر عام ١٩٣٣)
الطبعة الثانية :
(مطبعة الاعتدال عام ١٩٣٣)
الطبعة الثالثة :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠) } أهل الكهف

(مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣) } عودة الروح
في جزئين

(مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤) : أهل الفن

المجلد الأول : ويشمل قصص : سر المنتصرة ، نهر
الجنون ، رصاص في القلب ، جنسنا اللطيف .
(مطبعة الاعتدال عام ١٩٣٧) } مسرحيات
توفيق الحكيم

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التي نشرت بالعربية

- القصر
المسحور
- بالاشتراك مع الدكتور طه حسين بك :
(مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦)
- مسرحيات
توفيق الحكيم
- المجلد الثاني : ويشمل قصص : الخروج من الجنة ، أمام
شباك التذاكر . الزمار . حياة محطمت . (مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)
- يوميات نائب
في الأرياف
- الطبعة الاولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)
الطبعة الثانية :
مطبعة مصطفى الباني الحلبي واولاده بمصر عام ١٩٣٨
- عصفور من
الشرق
- الطبعة الاولى :
(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
الطبعة الثانية :
مطبعة التوكل عام ١٩٤١
الطبعة الثالثة :
مطبعة التوكل عام ١٩٤٣
- تحت شمس
الفكر
- الطبعة الاولى :
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨
الطبعة الثانية :
مطبعة التوكل عام ١٩٤١

«تابع» كتب توفيق الحكيم

التي نشرت بالعربية

- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨ } تاريخ حياة
معدة
- الطبعة الاولى
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨ } عهد الشيطان
الطبعة الثانية
مطبعة التوكل عام ١٩٤٢
- مطبعة التوكل عام ١٩٣٩ } براكسا
أو
مشكلة الحكم
- راقصة المعبود : مطبعة التوكل عام ١٩٣٩
- نشيد الأناشيد : مطبعة مصر عام ١٩٤٠
- الطبعة الاولى }
مطبعة التوكل عام ١٩٤٠ } حمار الحكيم
الطبعة الثانية }
مطبعة التوكل عام ١٩٤٢ }

« تابع » كتب توفيق الحكيم

التي نشرت باللغة العربية

الطبعة الاولى
مطبعة التوكل عام ١٩٤١
الطبعة الثانية
مطبعة التوكل عام ١٩٤٢

سلطان الظلام

من البرج العاجي : مطبعة التوكل عام ١٩٤١

تحت المصباح : مطبعة التوكل عام ١٩٤٢
الاخضر

بجاليون : مطبعة التوكل عام ١٩٢٢

كتب توفيق الحكيم

التي نشرت لغة أجنبية

شهر زاد } ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج
ليكوت عضو الأكاديمية الفرنسية .

عودة الروح } ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٣٥ .
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ .

يوميات نائب
في الأرياف } ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ بمقدمة للدكتور
حافظ عفيف باشا . (طبعة أولى)
وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية)

أهل الكهف } ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت مدير دار الآثار العربية .

عصفور من
الشرق } ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١



إلى

حاميتي الطاهرة

«السيرة زينب»



الفصل الأول

مطر غزير قد ألبأ الناس إلى مظلات المشارب
والحوانيت ، وإلى الحيطان وأفاريز البيوت ومداخل
المترو . ولم يبق في ميدان « الكوميدى فرانسيز » غير
مياه تتدفق من الميازيب ، وسيارات تخوض في شبه
عباب . آدمى واحد ثبت لهذا المطر ، وجعل يسير
الهوينا غير حافل بشيء ، عيناه الواسعتان تتأملان
نافورة الميدان وهي زاخرة بالماء ، وفمه ذو الشفاه
العريضة يلوك شيئاً كالبلح ويلفظ شيئاً كالتواة ، ويده
اليمنى كالرسول الأمين من جيبه إلى فمه تواتيه بالمدد في
غير انقطاع . هذا الآدمى فتى نحيل الجسم أسود الثياب ،
على رأسه قبعة سوداء عريضة الأطار في قمها فجوة
غازة كطباق الحساء قد امتلأت بماء المطر .
وفرغ الفتى من تأمل النافورة ، فغادرها إلى جانب

آخر من الميدان يقوم فيه تمثال الشاعر « دى موسيه »
وهو يستوحى عروس الشعر . فوق الفتى ينظر إليه
وقد نقش على قاعدته : « لا شىء يجعلنا عظماء غير ألم
عظيم » ثم تطلع إلى وجه الشاعر فألقى قطرات المطر
تساقط من عينيه كالعبرات . فتحرك قلبه ، وسكت
فه ثم همس مررداً كالمخاطب لنفسه :

— لا شىء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم ! نعم . . .
ومرت في رأس الفتى صور من ماض بعيد
ثم همس :

— حتى هنا أيضا يعرفون هذا ! . . .
وغرق في التفكير . وغرقت قبمته في الماء ، حتى
فاض فسال على وجهه . وإذا صوت خلف ظهره يصيح به :
— أراهن بمائة فرنك أن لا مخلوق يقف هكذا
أمام هذا التمثال إلا أنت !
فالستدار الفتى سريعاً :

- أندريه !

- قبل كل كلام ، انج بي وبنفسك من هذا

المطر . ليس هذا وقت النظر إلى التماثيل !

- بل هذا وقته ، تأمل يا أندريه ! هذه الدموع

في عيني الشاعر !

- لو لم يكن هذا الشاعر من رخام لولى الساعة

هارباً هو وعروسه إلى أقرب قهوة ، وتركاك وحدك

وسط هذه المياه . . .

ولم ينتظر الفرنسي جواباً من صاحبه ، بل جذبته

إلى مظلة قهوة « الريجانس » القريبة ، ثم نظر في وجهه

فوجد فيه يتحرك :

- عجباً ! ماذا في فك ؟

فلم يجب الفتى . ولفظ من فيه نواة وقعت في الماء

الجارى إلى « البلايع » فصاح به أندريه :

- تأكل بلعاً !

— نعم ، وفي شوارع باريس !

— آه أيها العصفور القادم من الشرق !

— في مصر نسميه «عجوة» ، هذا النوع من البلح.

إني أتخيل نفسي الآن في ميدان المسجد بحى السيدة

زينب ! وأتخيل هذه النافورة . . . ذلك « السبيل »

بنوافذه ذات القصبان النحاسية . .

— كفى تخيلاً . تعال . . لقد سكن المطر . .

— إلى أين . .

فلم يجب أندريه . . وأخذ ينظر إلى ملابس الفتى

ويتأمله من قبعته السوداء ومعطفه الأسود ورباط عنقه

الأسود إلى حدائه الأسود ثم قال :

— عظيم جداً .

— ما هو العظيم جداً ؟ !

— إنك الآن خير من يصاح للذهاب . . .

— إلى فاتنتي الجميلة . . .

— بل إلى المدافن . . . هلم معي لتشيع جنازة
زوج بنت مدام شارل ! إن عليك « طقم » حِداد كامل .
لكأني بك دائماً على أتم استعداد لمثل هذه الطلبات !
إنه ليسرني أن أصحب مثلك إلى هذه الزهة القصيرة !
— الزهة !

قالها الفتى وهو ينظر إلى صاحبه شزراً ، ولكن
صاحبه تجاهل النظرة وجذبه من يده :

— تعال تؤدي معاً هذا الواجب . . .

— نحو من ؟ ..

— نحو الفقيد المرحوم زوج بنت مدام شارل !

— ومن هي أولاً مدام شارل ؟

— هي والدة أحد زملائي في المصنع .

— وما ذنبي أنا ؟

— ذنبك أنك صديقي ! فلتتحمل ما تحمّل لاشيء

يشقل على نفسي مثل المشى صامتاً خلف عربات الموتى !

سنتحدث على الأقل سويًا في شئوننا .. بل في شئونك أنت ، إنى أعدك وعدا صادقًا بالحديث طول الوقت عن فانتك ذات الأنف الذى تقول إنه غير فى نظرك المثل الأعلى للأنف الجميل ، وقلب فى رأسك كل الصور والأوضاع التى كنت قد تخيلتها للجمال !

— نعم ، نعم ... لقد كنت أعتبر الجمال ...

وانطلق الفتى يتكلم متحمسًا ... ولم يفتن إلى أندريه وقد قاده من ذراعه ونزل به إلى إحدى محطات المترو ، وابتاع له تذكرة فى الدرجة الثانية ، وأركبه قطارا مرقق بها فى جوف الأرض مروق لسان محسن بذلك الحديث اللذيذ . وابتسم أندريه آخر الأمر فى حُبِّ ابتسامه من يقول فى نفسه : « إن معى الآن مفتاح قيادته فلا لَوْحَن له « بها » يتبعنى صاغرا بغير أن يشعر إلى أقاصى الأرض ! ... »

دقت نواقيس كنيسة « سان جرمان » احتفالا
باستقبال الجثمان . ولم تكن الجنازة قد وصلت بعد .
ولم يكن يباب الكنيسة أحد غير « محسن » . فقد تركه
« أندريه » عند الباب وذهب يشتري مظلة ، يتقيان بها
المطر أثناء السير في الطريق من الكنيسة إلى المقبرة .
وأبطأ أندريه على صديقه . وبدأت طلائع الجنازة .
واشتد دق النواقيس . ثم فتح باب الكنيسة على
مصراعيه واقتربت عربة الموتى تهادي حاملة التابوت
ثاويًا تحت باقات الزهر . وخلفها المشيعون تحت
مظلاتهم . ووقفت العربة . وحمل التابوت إلى داخل
الكنيسة . وصرت أفواج المشيعين بمحسن في ملابسه
السوداء الكاملة فأنحنوا له حاسبين أنه من أهل الميت
الأقربين . هنا أدرك الفتى حرج موقفه . فأسرع واندس
في فوج الداخلين ، قبل أن تقع عليه أعين أهل الميت
الحقيقيين والناس تنحني له ، فيظنون بشأنه الظنون .

دخل محسن الكنيسة . ولم يكن قد دخل كنيسة
قط . ولا حضر صلاة ميت من أموات النصارى .
ولا رأى ما يجري فيها من المراسيم ولا ما يتبع من
الطقوس . فأحس برهبة . وخيل إليه أنه باجتيازه العتبة
قد ترك الأرض وارتقى إلى جو آخر ، له عييره وله نوره .
هنا أيضاً عين الخشوع وعين الشعور الذي كان يهز نفسه
كلما دخل في القاهرة مسجد السيدة زينب . هنا أيضاً
عين السكون ، وعين الظلام في الأركان ، وعين النور
الضئيل الهائم كالأرواح في جو المسكان ! إن بيت الله
هو بيت الله في كل مكان وكل زمان .

وضع التابوت في الصدر وأضيئت حوله الشموع .
وأخذت أصوات الرهبان تعلقوا مرتلة الصلاة على أنغام
الأرغن . ثم تقدم الناس في صف طويل نحو التابوت
يمرون به ، الواحد تلو الآخر ينضحونه بماء مقدس من
«قمم» فضى . ومشى محسن في الصف ذاهلاً خائفاً أن

يُحَدِّثُ صَوْتًا عَلَى أَرْضِ الْكَنِيسَةِ ، وَانْتَبِهَ قَلِيلًا فَرَأَى
الْقَمِّقْمَ فِي أَيْدِي مَنْ أَمَامَهُ فِي الصَّفِّ يَرْسُمُ بِهِ الْوَاحِدَ
عَلَامَةَ الصَّلِيبِ وَهُوَ يَنْضَحُ بِهِ الْمَيْتَ ، ثُمَّ يَسْلَمُهُ
فِي صَمْتٍ إِلَى مَنْ خَلْفَهُ ، وَرَاقِبَ الْفِي هَذَا الْفِعْلِ يَتَكَرَّرُ
أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ مَرَّةً وَهُوَ يُحْسِبُ الْفِ حَسَابَ لِنُوبَتِهِ
وَأَذْهَلَّتْهُ الرَّهْبَةُ فَمَا رَاعَهُ إِلَّا الْقَمِّقْمَ يَسْلَمُ إِلَيْهِ مِمَّنْ أَمَامَهُ
فَتَنَاوَلَهُ بِيَدِ تَرْجُفٍ ، وَلَوْحٍ بِهِ نَحْوُ التَّابُوتِ رَاسِمًا فِي
الْهَوَاءِ عَلَامَةً لَا يَدْرِي مِنْ قَرَطٍ اضْطُرَّابِهِ أَدَلَّتْ عَلَى
صَلِيبِ أُمِّ عَلَى هَلَالٍ • ثُمَّ نَضَحَ التَّابُوتَ عَلَى نَحْوِ خَشْيِ
مَعَهُ أَنْ يَكُونَ قَدًا كَثْرًا فَبَلَّلَ الْغَطَاءَ • وَلَسْكَنَهُ فَرَّغَ
مِنْ مَهْمَتِهِ عَلَى أَيِّ حَالٍ • فَتَنَفَسَ الصَّعْدَاءُ وَمَدَّ يَدَهُ
بِالْقَمِّقْمِ يَسْلَمُهُ إِلَى مَنْ يَلِيهِ • فَلَمْ يَجِدْ خَلْفَهُ أَحَدًا • كَانَ
هُوَ الْآخِرُ فِي الصَّفِّ . يَا لَلْكَارِثَةِ ! مَا الْعَمَلُ ! وَحَارَ
وَارْتَبَكَ بِهَذَا الْقَمِّقْمِ فِي يَدِهِ لَا يَدْرِي مَا يَصْنَعُ بِهِ وَقَدِ اشْتَفَلَ
عَنْهُ الْقَوْمُ بِتَعْزِيَةِ أَهْلِ الْمَيْتِ الْوَاقِفِينَ عِنْدَ بَابِ الْخُرُوجِ

وتصيب العرق بارداً من جيئته • إنه يحمل في يده شيئاً
مقدساً • كيف يتصرف إذن من تلقاء نفسه في شيء
مملوك لله داخل بيت الله ! إنها لمسؤولية عظيمة !
ولمحه أحد القسيسين في هذا الموقف فبادر إليه وحمل
عنه العبء • فانصرف الفتى وكأنه يقول في سداجة :
« ما أقوى كواهل أولئك الرجال الذين يتحملون كل
تلك التبوعات في إدارة ممتلكات السماء ؟ » وأسرع
محسن إلى اللحاق بالصف كي يعزى أهل الميت فيما كاد
يتقدم إليهم في ملابسه السوداء حتى حَمَلُوا فيه كأنما
هم يتذكرون أو يتساءلون عن هذا الصديق الحميم الذي
أنى يشاركونهم مصائبهم في ثياب حداد كاملة لم يرتد مثلها
بعض أقارب الميت ولا نويه ! وأعيانهم التذكروا وفهم محسن
ما يجول بخاطرهم فلفظ سريعاً بضع كلمات غير مفهومة
وانطلق إلى الخارج ••• فوجد أندريه واقفاً تحت مظلة
جديدة بين بقية المشيعين المنتظرين خروج التابوت •

ورأى الفرنسي صديقه فابتدره ^{محملاً} في وجهه :

— مالك أصفر الوجه !

فلم ^{يحب} محسن بغير قوله :

— اذهب وادفن زميلك . أما أنا فاني أنتظر

في قهوة « الدوم » .

واختفى سريعاً قبل أن يترك لاندريه وقتاً

للـكلام ...

جاس محسن وصاحبه أندريه في قهوة « الدوم »
بجى مونبارناس ، وهي ملتقى أهل الفن من مصورين
ومثالين وشعراء . وهي من أجل ذلك ذات شهرة
وصيت . وهبط في ذلك العام سعر الفرنك الفرنسي
فهبط باريس سائحون كثيرون أغلبهم من الأمريكان
انتشروا كالذباب في كل مكان ...

وطاب محسن قدحاً من عصير البرتقال ، جعل

يرشِف منه في بَطء من خلال ذلك العُود المَجْوَف من
القَش ، وطلب أندريه كأساً من « الپرنو » أخذ منه
جُرْعَةً ثم التفت إلى صديقه قائلاً :

— أتدرى أين دفنوا زوج بنت مدام شارل ؟

— لا أريد أن أعرف أين دفنوه .

— لماذا ؟

فضاق محسن ذرعاً :

— وبعد؟ أخبرني بحق ربك ، متى تَعْتَقِنِي من هذا

المدعو زوج بنت مدام شارل؟! أما كفاك أني صَلَّيْتُ

على روحه في الكنيسة ، ونضحته من القمقم

المقدس! .. آه إني لن أغتفر لك هذا التهاون منك!

إنك كنت تعرف أني داخل هذا الحرم المقدس ولا

تقول لي حتى أعد نفسي ..

فابتسم أندريه وقال :

— أيها العصفور الشرقي! تعد نفسك لدخول

الكنيسة ! ما معنى هذا ؟ ... إنا ندخلها كما ندخل
القهوة . أى فرق ؟؟ هناك محل عام وهنا محل عام . هناك
الأرغن ، وهنا الأوركستر ..

فلم يلتفت إليه محسن وهمس كالمخاطب لنفسه :
— بل هناك السماء ! وليس من السهل على النفس

الصعود فى كل لحظة ... إنه لمجهود ! ..

فلم يبد على الفرنسى أنه فهم عن محسن . ولم يكلف
نفسه عناء سؤاله ، ورفع كأسه وجرع جرعة أخرى .
ثم أشار بطرف عينه إلى أمريكية حسناء جالسة مع
أسرتها على مقربة منهما ، وهى لا تفت عن النظر إلى
من حولها من فنانيين ، ووقعت عينها آخر الأمر
على محسن فى ثيابه السوداء ، فغمزت من معها وهمست
إليهم بكلام .

ولحظ محسن نظراتها فقال لا تدرىه فى صوت

منخفض :

— لماذا يرْمُقونني هكذا؟

— بحسبونك من أهل الفن بهذه القبعة وهذه

الملابس .

— إنهم ينظرون إلى كما ينظر الانسيان إلى طائر

غريب ! أو لم يروا فنانا قط ؟ يخيل إلى يا أندريه أن

هؤلاء الأمريكان قوم خلقوا من الأسمت المساح

لا روح فيهم ، ولا ذوق ، ولا ماض . إذا فتحت صدر

الواحد منهم وجدت في موضع القلب «دولار» . إنهم

ليأتون إلى هذا العالم القديم حاسبين أنهم بالذهب

يستطيعون أن يشتروا لأنفسهم ذوقا ، ولبلادهم ماضيا .

ولم يظهر على أندريه أنه أصغى إلى كلام صديقه

كله . فلقد كانت عيناه تتبعان الأمريكية :

— أهذه بريك من الأسمت المساح !

— لا تطل إليها النظر هكذا . وإلا قلت لزوجتك

« جرمين » !

فهز الفرنسي كتفيه ومضى في إظهار إعجابه :
— تأمل هاتين العينين الزرقاوين كأنهما في لون

زرقتهما بحيرتان من بحيرات الجنة !

— كلاً . بحيرات الجنة في لون الفيروز !

— أيها المفتون ! إنك لا ترى غير عيني فانتك التي

لا تعرف اسمها ! !

فنظر محسن إلى الفضاء باسمًا ساجماً بخياله ثم قال :

— أعرف صوتها . وهذا ليس بالقليل . . . ليلة

الأمس في الأوبرا . . .

— كنت في الأوبرا ؟

— اطمئن . أعلا التيارو . سمعت صوتها . أعني

صوتنا كصوتها . كل صوت جميل هو صوتها . سمعته يعني :

« قلبي يتفتح لصوتك كما تتفتح الأزهار »

« لقبيلات الصباح ! »

الفصل الثاني

جلس محسن كعادته كل صباح إلى مائدة المطبخ في المنزل الذي يقطنه، آمناً شر البرد القارس في الطريق، مستعدباً نقر المطر على زجاج النافذة كأنه نقر أطفال على طبول صغيرة وقد وضع على رأسه قلنسوة مصرية من «الكستور» وفتح أمامه كتاب الجمهورية للفياسوف أفلاطون وأمسك سكيناً جعل يقشر بها بصلا. وبين آن وآن يلتفت إلى طفل في الرابعة يلعب في أحداً ركان متقلداً سيفاً زائفاً مما يلعب به الأطفال، ومصوباً مدفعاً صغيراً من الصفيح نحو أعداء وهميين من الألمان. وكان الطفل يثرثر ويصيح موجه الكلام تارة إلى أعدائه وتارة إلى جدته المعجوزة الواقفة أمام النار تهيء مرقاً من لحم البقر وهي لاهية عنه وعمما يقول. وأخيراً التفتت إليه وسألته :

— ألسنت جوعان يا جانو ؟

— كلا . إني أحارب «البوش» .

فقالت جدته في تحمس :

— نعم . قاتل «البوش» يا جانو ! ولا تبق منهم

أحداً على وجه الأرض !

فرفع محسن رأسه مستغرباً بهذه الكلمة :

— «البوش» ؟ من هم «البوش» ؟

فابتسمت العجوز وقالت :

— هم الألمان . نحن عامة الفرنسيين نطلق عليهم

هذا الأسم .

وصاح جانو :

— نعم هم الألمان . جدتي ؟ لماذا هم يسمون بالبوش ؟

فتفكرت المرأة قليلاً ولم يسعفها علمها المحدود :

— لست أدري .

وأسرعت فغيرت مجرى الحديث ناظرة إلى محسن

مبتسمة لانها كه في عمله :

— « برافو » يامسيو محسن ! إنك لبارع حقاً

في تقشير البصل !

فقال محسن دون أن يبدو في نبراته تهكم أو تلميح :

— براعتك ياسيدتي في الغناء والعزف على البيانو !

فابتسمت ولم تدرك مراده :

— يالك من فتى متملق !

وأخفى محسن في نفسه ابتسامة لذكرى ذلك اليوم

الذي هبط فيه هذا المنزل . فقد أرادت هذه المرأة أن

تدخل على نفسه السرور وتملاً المنزل بهجة ومرحاً ،

فأرسلت في طلب « جرمين » زوجة ابنتها وأجاسنها إلى

البيانو وأخذت هي في الغناء بصوت لم يعرف له محسن

أصلاً من الأصول ، وإذا الغناء ينتهي بصيحة ظنها محسن

داخلة في تركيب النغم ، ولكنها كانت صيحة شجار

دبجاة بين الحماة وزوجة ابنتها ، واستفحل أمر الخلاف

بينهما إلى حد أزعج الفتى . فإِراعِه إِلا غطاء البيانو
يفلق في عنف . وزوج الابن تقوم إلى قبعتها ومعطفها
فتضعها عليها وضعا في غضب وتذهب نحو الباب تريد
الانصراف ، وانقلب المنزل في لحظة شرمُنَقَلَب . وامتلاء
لا بالمرح والبهجة والسلام ؛ ولكن بالكدر والكرب .
وما من سبب ظاهر استطاع محسن أن يستخلصه
لكل هذا . منذ ذلك اليوم ومحسن يحسب حسابا
لعزف العجوز وغنائها . وإذا عزفت مرة أوغنت رفع
عينيه إلى السماء وسأل المولى حسن الختام .

التفتت العجوز مرة أخرى إلى محسن وإلى البصل

ثم قالت باسمه :

— لا بأس ! لك عندي ثمن عملك هذا يا ماسيو

محسن . أتدرى ماهو الثمن ؟ سأعزف لك أغنية على

البيانو ؟

فلم يملك محسن نفسه :

— أَسْمِينِ هَذَا ثَمْنَا؟!

ثم استدرك وقال سريعا :

— أَيْةُ أَغْنِيَةٍ؟ يَنْبَغِي أَنْ تَتَّفِقَ عَلَى الْأَغْنِيَةِ أَوْ لَا

فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ :

— الْأَغْنِيَةُ الَّتِي تَحِبُّهَا، تِلْكَ الَّتِي قَلَّتْ لِي أَنْكَ سَمِعْتَهَا

فِي دَارِ الْأَوْبَرَا .

فَاهْتَزَّ مُحْسِنٌ فِي كُرْسِيِّهِ وَأَنْشَدَ عَلَى الْفُورِ مَطْلَعًا

أَغْنِيَةً « سَانِ سَانِسِ » :

قَلْبِي يَتَفَتَّحُ لَصَوْتِكَ كَمَا تَتَفَتَّحُ الْأَزْهَارُ

لِقَبَلَاتِ الصَّبَاحِ .!«

فَنظَرَتْ إِلَيْهِ الْمَرْأَةُ فِي عَجَبٍ :

— مَا أَشَدَّ حُبَّكَ لِلْمَوْسِيقِيِّ!

— إِنَّهَا فِي دَمِي

قَالَهَا مُحْسِنٌ فِي بَسَاطَةٍ تَمُّ عَنْ حَقِيقَةِ عَمِيقَةٍ ، وَفِي

لَهْجَةٍ تُشِيرُ عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ إِلَى مَاضِيهِ بِأَكْمَلِهِ! ثُمَّ تَنَاوَلْ

السكين واستأنف تقشير البصل ، وهو يصنع في
أعماق نفسه إلى أنغام تلك الأغنية ليلة أنشدتها « نينون
فالان » الشهيرة في أوبرا باريس منذ شهرين . ليلة جميلة
عجيبة لا ينساها محسن ، فقد رأى فيها ما لم ير من قبل
وسمع ما لم يسمع ، واقد أراد في تلك الليلة أن يتشبه
لأول مرة بالمويسين فاستأجر مقعداً في صفهم وهو
لا يعلم أن ذلك يستلزم لبس ثياب السهرة الرسمية ،
ونبته العجوز ، فخار في شأنه إذ ليس لديه هذا اللباس ،
ورأى آخر الامر أن يلجأ إلى الخيلة ، فاشترى صدر
قيص أبيض منسجى ربطه على صدره رباطاً وثيقاً
بخيوط (الدوبارة) ثم أتى بأكمام منشاة ربطها كذلك
حول معصميه ، وارتنى ملابسه العادية السوداء فوق
هذا كله والعجوز تنظر إليه وتقول : « لو أنه حدث
الليلة حادث استدعى خلع ملابسك لوجدوا فيك عجباً :
إنساناً مربوطاً بخيوط من الداخل (كطرد) البريد ! »

وحان الوقت ودخل محسن الأوبرا فماتمالك أن وقف
مشدوهاً : آية عظمة وأى ثراء يُشعران بالدوار !
وأى أنوار !

وأدرك من فوره معنى مجسماً لكلمة (الخصارة
الغريبة الكبرى) التي بسطت جناحيها على العالم !
نعم ، ماكل هذا البذخ والاغراق في الترف إلى
حد الكفر والفجر والاستهتار ، لكأنما جاء القوم وأغلبهم
من سُرارة الأمريكان إلى هذا المكان يتساجلون الغنى
والسعة وكبرياء المال أكثر مما جاءوا يلتمسون لذة
التطهر والخضوع في حضرة الفن ، أو لذة العودة إلى
الانسانية والروح على يد الموسيقى ! وصعد محسن سلم
الأوبرا المشهور وهو يتصبب خجلاً بين الصاعدين
من أصحاب (الفراك) الثمين ، والقبعة العالية ، والقميص
المنشى (الحقيقي) ! والسيدات الأنيقات في أثواب
الليل البراقة ، والحلي المتألقة ، كأنهن الشموس في عالم

الماس ، وخيل إلى محسن أنه قد دخل بين هؤلاء القوم
بالغش والتدليس ، وأن هذا السلم الشهير يأتي من حمله
وقد مرت عليه السنون وهو يحمل الجاه والمال في العالم
قاطبة ، ولعله المكان الوحيد الذي لا شك قد وطأته أقدام
جميع الملوك ، فليس ببعيد أن يغضب السلم في هذه اللحظة
ويزلزل بمحسن صاعحاً : « لم يبق على آخر الزمان إلا أن
يطأني بنعله القديم مثل هذا الصعلوك القادم من الشرق »
وتصور محسن أن خيوطه قد تحل لسبب من الأسباب
فيسقط الصدر المنشى على الرخام وسط أولئك القوم
المترفين فتكون الفضيحة ! كانت ليلة أحسن فيها الحرج
والمذلة . وعلم أن ثمرات الفن إنما هي أيضاً حق ووقف
على طبقة الأغنياء . وأن الطريق إلى الاستمتاع الروحي
ينبغي أيضاً أن يفرش بالذهب ، وتمثلت له تلك الجمهورية
الجميلة التي تخيلها الشعراء والفلاسفة في كل زمان :
جمهورية لا تعرف الفقر ولا تعرف الغنى لأنها لا تعرف

الذهب . وتعرف السلام لأنها لا تعرف الجشع . الكل
فيها مثل فرد واحد . الكل فيها يعمل . والكل يأكل
والكل يقرأ وينعم . والكل يلعب ويمرح . أما الذهب
فإنهم يصنعون منه مصابيح الطرقات وحوافر الجياد .
يا للساء ! أو مستطاع لمثل هذا الحلم الجميل أن يتحقق
يوما على هذه الأرض ؟!

وتنبه محسن قليلا وترك تأملاته ورفع رأسه فالتفت
السكون قد هبط على هذا المنزل الريفي الصغير ، ولم
يسمع إلا صوت لفظ الدجاج في الحديقة وصياح الديكة
وهرج الأوز . ثم ثرثرة جانو مخاطبا لعمه بين آن وآن .
وكانما سمَّ جانو اللعب آخر الأمر ، فنهض ودنا من
المرأة صائحًا في لهجته الصبيانية :

— جدتي ! الدجاجة الحمراء تبيض اليوم .

فأجابت جدته في تقطيب :

— جانو ! اني لا آذن لك في الذهاب إلى الدجاج

بمفردك .

- سأذهب مع مسيو محسن .
- لن تذهب اليوم . إن المطر ينهمر في الخارج
والبرد شديد .
- وماذا أصنع الآن ؟
- حارب «البوش» .
- حاربتهم .
- قص علي مسيو محسن كيف أراد الألمان أن
يدمروا باريس ! ألا تذكر ما قاتته لك عن هذا ؟
- كلا . إني أريد أن أعود إلى منزلنا .
- منزلكم خاوا الآن وليس به أحد . أنت تعلم
أن أباك وأمك لا يرجعان من المصنع قبل الغروب .
دمدم الطفل وتبرم في صوت كالبكاء . ثم مشى في بطاء
إلى حيث يجلس محسن وجعل ينظر إليه ثم مديده
الصغيرة إلى السكتاب المفتوح فوق المائدة وطفق يقلب
صفحاته باحثا عن صورة فيه . ولم يتحرك محسن . فقد

كان عقابه مشغولا ، ونظراته جامدة لا تتجه إلى شيء
بعينه . إنما كان يتساءل في أعماق نفسه : أليس في كل
فرنسا أمهات يُلَقِّنُ أطفالهن كراهية الألمان ؛ ومن
يدري لعل كل نساء ألمانيا يعلمن أطفالهن كذلك
ببغض الفرنسيين ؛ ولتكن الأسباب ما تكون ؛ بأي
حق تستطيع أم أن تنشيء ولداً على العداوة والبغضاء ؟
وانتشرت في المكان رائحة شواء شهية فرفع
محسن بصره فألقى المرأة مُخْرَجاً من الفرن نخباً من لحم
البقر أخذت تدهنه بالزبد وهي تقول :

— سيحضرون هذا المساء في الساعة السابعة

للغشاء .

فقاطعها جانو صائحاً في فرح :

— وهل جيزيل ستحضر أيضا يا جدتي ؟

فابتسمت المرأة والتفتت إلى محسن غامزة بعينها :

— بالطبع ستحضر جيزيل مع والديها .

فتهلل وجه الطفل، وطقق يثرثر كالبيغاء، وابتسم
محسن متذكراً أيام الطفولة الأولى !

* * *

دقت الساعة الواحدة في مصانع «كور بفوا»
القريبة، فأسرعت المرأة إلى قاعة الأكل وجعلت تهىء
مائدة الغداء، وسمع صرير مفتاح في الباب الخارجى، ثم
بدا في الدار شيخ ما كاد جانو يسمع صوت نعله وسعاله
حتى انطلق نحوه يجرى ويصيح: «جدى حَضْر! جدى
حضر!» ودخل الرجل المطبخ ونشر مظلة في يده بلها
ماء المطر، ومد يديه إلى النار وهو يجادث زوجه
في شؤون المعاش بعبارات يقظهما سعال عنيف. وأصغت
إليه المرأة حتى فرغ من حديثه فقالت له في صوت
اليائس:

— صفوة القول، ليس لنا أن نأمل في عمل بأحد
المصانع؛ أليس الأمر كذلك؟

— الوقت عسير يا عزيزتى . والمصانع لا تريد أن
تمنح أمثالنا القوت ، لأن لديها حاجتها من العمال ،
من أولئك العمال المساكين تسخرهم طول اليوم من
أجل لقمة كالعبيد !

— وماذا نصنع نحن إذن ؟ ينبغي أن تذكر أن
ولديك أندريه ومارسيل لن يستطيعا بعد اليوم إمدادنا
بالمال . فلقد اعترم أندريه إلحاق جانو بمدرسة داخلية ،
وفي هذا باب جديد للنققات سيتكلفه المسكين . كذلك
مارسيل يتكلف الباهظ من المال منذ عام فى الانفاق
على مدرسة جيزيل !

فأطرق الرجل مليا ثم قال :

— صدقت . ليس لنا إذن من مورد إلا
والتفت يمنة ويسرة باحثا عن محسن بعينين خائبتين
تحت المنظار . وأدركت المرأة مراده والتفتت الى مكان
محسن من مائدة المطبخ فوجدته خاليا فقالت :

— «عصفور الشرق» صعد إلى حجرته من غير
شك كي يضع كتابه ويتهيأ للغداء . نعم ليس لنا من
مورد إلا ما يدقعه هذا الشاب .

صمت الرجل لحظة متفكراً ثم قال :

— أترى تطول إقامته بيننا ؟

— من يدري ؛ لقد قال لي ذات يوم إنه سيمكث
عامين أو ثلاثة . أمّل أن لا يسأم حياة الريف ويفر
إلى باريس .

فظهر القلق على وجه الشيخ . ثم نظر مفكراً إلى
النار المتأججة في الوُجّاق وقال كمن يدخل على نفسه
الاطمئنان :

— كلا . انه فيما يبدو لي شاب لا يميل إلى اللهو

كسائر الشبان

— حقيقة . انه لا يحب سوى المطالعة والتأمل

والموسيقى . لكن من يدري ان كان يلبث فينا

كل مدته؟ ليس لنا إلا أن نأمل .
هز الرجل رأسه وأطرق صامتاً ، ثم دس يده في
جيبه وأخرج لفافة تَبَغ . وجاء « جانو » يجرى وقفز
الى ساق جده فامتطأها كما يمتطي الحصان وطفق
يُحِدِّثُه بمجىء جيزيل المنتظر ...

الفصل الثالث

فرغوا من الغداء ، وانصرفت المرأة إلى الأواني
والأطباق تغسلها في المطبخ وتأهب للعشاء ، وجلس
زوجها على مقربة منها يدخن ويطلع جريدة
« الأومانيتيه » - الانسانية - المنتشرة في طبقة العمال
وأهل الفاقة . وخلال جانو إلى لعبه ومدافعه وحربه
الضروس . وأغلق محسن حجرته عليه ، ووضع كتابه
أمامه وقراءصفحتين ، ثم جمدت عيناه على الكتاب .
ولم يعد يقرأ أوبيصر شيئاً ، فقد ترك الحجرة ، وغادر
الأرض ، وضل في بحار التأمّلات ...

وأقبل المساء أخيراً ، ورن جرس باب الحديقة
فترك جانو لعبه وأسرع نحوه ، ثم لم يلبث أن صاح في
فرح : « ماما حَضَرَت ! بابا حضر ! » وظهرت امرأة
في مقبّل العمر ، جذابة الوجه ، تعلق بها جانو وهي

تدفعه عنها في رفق ، وخلفها زوجها أندريه ، وعليهما
هما الاثنان مظاهر التعب والقوى المنهوكه ، ومسحت
العجوز يديها في «فُوطه» المطبخ التي ترتديها ، وأقبلت
على زوج ابنها تعانقها وتتأمل وجهها وتقول في حَسرة
متصنعة :

— إنك متعبة منهوكه القوى يا جرمين !
فأجابت الزوجة وهي تنظر الى زوجها الشاب :
— إننا لم نخرج من المصنع إلا الساعة .
واتجهت العجوز إلى ابنها تعانقه وتضحك في
حرارة حقيقية :

— وأنت أيضاً يا أندريه ! ما كل هذا الشحوب
— إننا يا أمه نعمل ثمانى ساعات في النهار !
قلها أندريه وهو ينظر الى أبيه . وكان أبوه
قد طرح الصحيفة من يده واتجه الى جرمين وجانو
يباسطهما ، فلما سمع قول أندريه صاح في حدة :

— يالها من وحشية ! إن هذا لم يعد يسمى عملاً .
إنما هو الاسترقاق . الرق لم يذهب من الوجود . لقد
أخذ شكلاً آخر يناسب القرن العشرين . هاهي ذى
جيوش من العبيد يسخرها أفراد معدودون من السادة
الراسماليين ؛

ورفع جانو بصره إلى جده ولم يدرك سبباً لحدثه
وحانت من أندريه التفاتة إلى الصحيفة الملقاة على
الأرض فابتسم وقال :

— أهذا ما قرأته اليوم في «الأومانيتيه» يا بتاه ؟

فأجاب الرجل في جد وحدة :

— نعم ، أو ليس هذا هو الحق .

— من غير شك ، هذا هو الحق ، لكن ماذا

نصنع نحن الفقراء ؟

— ينبغي أن تنقص ساعات العمل على الأقل ،

حتى تستردوا بعض حررتكم وبعض وقتكم وحتى

تَنقَدُوا مَا بَقِيَ لَكُمْ مِنْ صِحَّتِكُمْ ، وَحَتَّى نَجِدَ لَنَا نَحْنُ
الْعَاطِلِينَ عَمَلًا وَكَسْبًا نَسُدُّ بِهِ الرَّمَقَ .

— إِنَّكَ مَجْهُدٌ نَفْسَكَ فِي السِّكِّامِ يَا أَبَتَاهُ . لَقَدْ
قُلْتُ الْحَقِيقَةَ : نَحْنُ عِبِيدُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ . وَمَتَى كَانَ
لِلْعَبِيدِ حَقُّ الِاعْتِرَاضِ أَوْ حَقُّ الِاقْتِرَاحِ ؟

وَأَرَادَ الشَّيْخُ أَنْ يَجِيبَ . وَلَكِنْ جَانَوْتُمْ لِمَلِّ وَنَظَرَ
إِلَى وَالِدِيهِ وَإِلَى جَدَّتِهِ وَصَاحَ :

— لِمَاذَا أَبْطَأْتَ جِيزِيلَ ؟

وَجَمَلَ الطِّفْلُ يَجْذِبُ ثِيَابَ أُمِّهِ مَلِجًا فِي السُّؤَالِ
فَضْرَبَتْ الْأُمُّ عَلَى يَدِهِ الصَّغِيرَةِ فِي لُطْفٍ ، وَخَلَّصَتْ
ثِيَابَهَا مِنْهُ ، وَأَرَادَتْ جَدَّتَهُ أَنْ تَقْصِيَهُ فَقَالَتْ لَهُ :

— إِذْهَبْ وَجِئْ بِسَيِّوِ مَحْسَنِ ، فَقَدْ أَزَفَ

مِيعَادُ الْعِشَاءِ .

وَتَنَبَّهَ أَنْدَرِيَهُ فَسَأَلَ عَلَى الْفُورِ :

— أين عصفور الشرق ؟ لقد فاتني ان اسأل عنه

ساعة دخولي ؟

— في حجرته .

فأبجه أندريه نحو سلم الدار ثم عاد يقول :

— لست أرى نوراً في حجرته .

فأجابت الأم العجوز وهي تقطع رغيفاً طويلاً

من الخبز :

— إنه في حجرته ، جالس إلى مكتبه ، وطالما

يفاجئه المساء وهو أمام كتابه بلا حراك ، وكثيراً

ما أدخل حجرته فأجد الظلام محيماً عليه وهو جالس

جامد كالتمثال فأدير له مفتاح السكرباء !

— إنه غريب الأطوار ! إنني أعرفه حق المعرفة !

وعندئذ دق جرس الباب الحديدي ، ففرق جانو

من بين الجميع إلى الباب وهو يصبح كالعصفور الصغير :

— جيزيل !

اجتمع السكل حول المائدة وكانوا قد انتهوا من
العشاء منذ قليل، ولبثوا في مقاعدهم يتحدثون عن
الاشتراكية، وقد فشا أمرها في باريس، وأمست
بدعة من البدع يتبعها الناس مقلدين. وأن الحياة أمست
عسيرة وأن سعر الفرنك هوى الى الحضيض، وأن
فرنسا الآن فريسة أصحاب المال الأمريكيين، وأن
هؤلاء الأمريكان قد بلغ من عُتُوهم واعتدادهم بأنفسهم
أن الواحد منهم لا يوقد سيكاره إلا بورقة مالية مشتعلة
تحت أنظار الشعب الفرنسي الفقير! هنالك صاح
زوجها الشيخ في غيظ:

— يالهم من أنذال!

ثم استطردت العجوز فجأة، وكأنها استكشفت
شيئاً:

— لاريب أنهم هم السبب في غلاء أسعار الخضر
واللحم والفاكهة؟

وألقت نظرة استفهام على الحاضرين فاذا هي ترى
جانو وابنة عمه جيزيل قد جلسا متلاصقين يأكلان
«الجاتو» ولا يكفان عن الكلام .

ونقد نصيب جانو فجعل ينظر الى جيزيل التي
تكبره بعامين وهي تأكل في تَوَدَّة وكياسة ، وفطنت
الطفلة الى فم العاطل والى نظراته الطامعة فما ترددت ،
وتقدمت إلى صديقها بكل ما بقي لها . ولم يَأْبَ عليها
جانو ، وقبل منها هديتها وطفق يلتمهم ما أعطته وهو
ينظر اليها بعينين باسنتين كليهما اعتراف بالجميل ، لكنه
لم يقل شيئاً . هنالك تجهمت له جدته وصاحت به :
— جانو ! ألا تقول لها شيئاً ؟

فالتفت الطفل إلى جدته في سداجة :

— أقول ماذا ؟

— تقول ماذا ؟ تقول ما يقول الناس عندما

يتقبلون شيئاً من الغير .

— ماذا يقول الناس ؟

— يقولون : « شكراً » ، ولقد علمتكم ذلك

الف مرة .

ثم التفتت الى والدى الطفل فى قنوط :

— لم يبق لى جلد على تهذيب هذا الغلام . وإبنى

أصار حكا القول . هذا ليس من عملى ، إنما هو من عمل

الأبوين . وما دُمّا تتركنا لى ابنك أطول النهار وتنصرفان

إلى المصنع ، فلا أمل فى أن ينشأ ولدك على الخلق القويم

فأجاب أندريه فى غير أكثرات :

— وهل تظنين يا أمّاه أن هذا من عملنا نحن ؟

هذا من عمل المدرسة ، وسندخله المدرسة ؛ أما نحن

فلدينا عمل آخر كما تعلمين .

— نعم . المصنع !

فقال الشيخ فى تهكم :

— بالطبع . المصنع !!

فهزت جرمين كتفيا . فقالت العجوز في حدة :
— لا تهزى كتفك يا جرمين ! إياك أن تنسى
لحظة أهمية تأثير البيت . في زماننا كان البيت هو كل
شئ . آه . لقد ذهب كل شئ ، طيب بذهاب زماننا !
فقال أندريه وأخوه مارسيل في وقت واحد :
— أين هو البيت اليوم يا أماء ؟
فتأملت العجوز قليلا هذا القول منهما ثم أجابت :
— صدقتما لم يعد هنالك بيت وا أسفاه ، ولم تعد
هنالك أسرة . الرجل والمرأة في المصنع طول النهار !
ياله من زمن عجيب !

فقال الشيخ في قوة واقتناع :

— قلت لكم هذا عصر العبيد قد عاد من جديد !
وانتبه محسن لهذه العبارة ، فلمعت عيناه يريق
غريب . ثم لم يلبث أن استأذن من الحاضرين في

الصعود إلى حجرته ، فأذنوا له باسمين ، فصعد وجلس
إلى مكتبه في الظلام وهو يهيمس :

— نعم . لن يذهب الرق من الوجود . لكل

عصر رقه وعبيده!

الفصل الرابع

لم يمكث محسن طويلاً غارقاً في تأملاته ، فقد
ضرب عليه الباب ، فانتبه ، وإذا صديقه أندريه وزوجته
جرمين يصيحان به :

— عصفور الشرق وحيد في القفص !

فقال محسن كالمخاطب نفسه :

— إني دائماً في قفص

فقال أندريه في ابتسامه خُبث :

— في قفص الحب سجين أيها المسكين !

— نعم سجين .

فقالت جرمين باسمه :

— أتعترف بهذه السهولة ؟

— وما فائدة الإنكار ؟

— ولماذا لا تنطلق حراً مفرّداً في قفصاء الحب ؟؟

فأسرع أندريه قائلاً :

— انك تطليبين المستحيل . إنه سيظل دائماً هكذا

إنه حتى الآن لم ينجح حتى في الوصول الى معرفة اسمها

فقالت جر مين في ضحكة خفيفة :

— لم يعرف بعد اسمها ! حقا إنه لمح ب خائب !

فأخذ وجه محسن لون الجذ الصارم ، وقال في هدوء

وموافقة واقتناع :

— أما اني محب خائب ، فهذا صحيح ، ولا محل

للجدل فيه ، وقد أعيتني هذه الخبيثة في كل زمان ومكان !

فقل أندريه سائلاً :

— ألم ترها اليوم ؟

— لم أرها منذ أسبوع ، ولم أنصرف الى غير

مطالعاتي . إن الكتب تستطيع أن تشغل رأسي حقيقة

لكن هل الرأس هو كل شيء في حياة إنسان؟ آه ...

إن أجمل لحظاتي ساعة أقف أمامها أنتظر ، وأنا أعلم أنها

لن تلقى الى بكلمة تَسْرُّ خاطري . مرة واحدة نبذت الى
عفواً بنظرة وقالت لى : « أما تزال واقفاً هاهنا ؟ أى
مخلوق أنت ؟ » .

— وما قصدها من هذا ؟

— لست أدري ؟ فسِرَّ هذه الجملة كما تشاء . أما
أنا فقد فسرتها طبعاً لمصلحتى . إني أحب هذه العبارات
اللبهمة التى أتخيل معناها كما أشاء .

— انك رجل خيالى ، وهذه مصيبتك .

قالها أندريه وهو ينظر الى جرمين . فأمنت على
قوله برأسها وأضافت :

— من غير شك . لاسبب عندى لفشل محسن
غير أنه خيالى أكثر مما ينبغى . والمرأة لا تقتنص
بالخيال ، بل بالحقيقة .

فلم يعترض محسن وقال فى إذعان :

— وأين هذه الحقيقة؟ أمحناني هذه الحقيقة التي
أكسب بها عطف المرأة؟

فقلت جرمين :

— أتريد أن تعلم أين تجد هذه الحقيقة؟

— نعم أخبريني أين هي، وأنا لا أنسى لك ابداً

هذا الجميل .

— إنها تشتري بالتمن؟

— كم التمن؟ كل حياتي فيما أعتقد !

— بل عشرون فرنكا فقط .

— أمزحين؟

— بل أقول جدا . عشرون فرنكا فقط تشتري

بها من حانوت شارع « هوسمان » زجاجة عطر

« هوييجان » صغيرة، وتقدمها إلى صاحبتيك في الصباح

هذه هي كل الحقيقة . أفهمت؟

فحملت محسن في الفضاء، كما أنما قد كشف عنه

حجاب ، ثم التفت الى جر مين وقال .

— أحقماما تقولين؟

فابتسمت جر مين وقالت في صوت المتعجب :

— يدعشني أن في ذكيا مثلك يجهل هذا !

— قارورة « هو بيجان » فقط ! ثمنها عشرون

فرنكا ! إنك تبالغين ياسيدتي ! إنها جديرة ان أضع

تحت سُبا کہا قلبی كله !

— سبا کہا !

— لن اقدم اليها شيئاً زهيداً من هذه الأشياء !

— اين صاحبتك يا محسن ؟

فأجاب اندريه في الحال عن صديقه باسمها :

— قلت لك يا جر مين إنه لا يعرف من هي ، ولا

يدري عنها شيئاً .

فقال محسن دون ان يخرج عن هدوءه :

— هذا صحيح .

وازداد عجب جر مين فقالت تسأل الفتي :

— يا للغرابة ! وأين تراها إذن ؟ !

فأجاب محسن :

— أراها في شبّاكها ، تشرف على الناس بعينين

من فيروز ، وهم يرون أمامها الواحد تلو الآخر ، من

كل جنس ، ومن كل طبقة . فيهم الفقير مثلي ، وفيهم

الموسر مثل ملك من الملوك . نعم . يمر بين يديها كل

يوم هذا الموكب ، وهي تبسم من شبّاكها بين آن وآن ،

دون أن يعرف أحد سر قلبها .

فنظرت جر مين الى محسن ملياً ثم قالت :

— أهذه المرأة في باريس ؟ أم في كتاب الف

ليلة وليلة !

وقال أندريه ضاحكاً :

— وهذا الشباك أين هو ؟ في أي قصر سحري ؟

وأردفت جرمين ضاحكة :

— وهل توجد حقا في باريس تلك المرأة التي يمر

بين يديها الناس وهي في الشباك ؟!

فأجاب محسن في هدوء :

— في شباك التذاكر .

فصاحت جرمين وقد فهمت مراده :

— آه . . . هي عاملة في شباك تذاكر . . .

— تياترو الأوديون !

قالها محسن كالحالم . وضحكت جرمين ، وضحك

أندريه ثم قال :

— أنسمع نصيحتي يا محسن ! اذهب غداً وقدم

إليها باقة من الزهر ، ثم ادعها إلى العشاء في مطعم من

المطاعم !

فتفكر محسن قليلا ثم قال :

— وإذا لم تقبل مني باقة الزهر !؟

فقلت جرمين من فورها :

— لا يوجد امرأة في باريس ترفض باقة من

الزهر ! .

الفصل الخامس

— مدموازيل ! ألم يأت بعد ؟

— من ؟

— ذلك الفتى الذى يضع المعطف الأسود فوق

منكبيه .

— لست أدرى يا كلوتيلد . لا أظن أنى رأيتَه

اليوم . . .

— إنى أراه دائماً جالساً فى القهوة التى أمامنا يطيل

النظر إلى هذا الباب .

— لعله مجنون .

وعندئذ أقبل رجل فى سنّ الشباب جميل الهيئة ،

دخل تَوّاً على عاملة شباك التذاكر من ذلك الباب الذى

كتب عليه بخط كبير : « الدخول ممنوع » ، فما

إن رأته كلو تيلد العجوز حتى تناولت مكنستها وهرولت
إلى عملها وهي تهمس :

- « الرئيس » .

- من هو المجنون يا سوزى ؟

قالها ذلك الرجل بعد أن ألقى على الفتاة الجميلة نظرة
لا يدرك معناها غيرها . فهزت كتفها ولم تجب . فألح
الرجل في شدة وغضب :

- قلت لك أريد أن أعرف من المجنون ؟

فرفعت رأسها ونظرت إليه بعينين متسعيتين في
لون الفيروز ، تزيئها أهداب طويلة شقراء . ثم قالت
في صوت لا يدرك معناه إلا هو :

- لست أنت المقصود على أى حال .

- من إذن ؟

- فتى آخر كنا نتحدث عنه .

- فتى !!

- لست أعرف بعد من يكون ، اعتاد أن يأتي كل يوم إلى هذا الشباك ، فينتظر حتى ينفذ الناس ويخلو المكان ، فيتقدم إلى قائلاً : « بوجور مدموازيل ! » فأرد عليه التحية ، فيقف يطيل إلى النظر صامتاً ، ثم يتحرك قائلاً : « أورفوار مدموازيل ! » ، ويمضي لشأنه . !

- أحد المعجبين من غير شك !

قالها الرئيس الشاب في نبرة غريبة . فأجابته سوزى على الفور :

- بل مجنون . هذا كل اعتقادي .

- حسبك تعينني أنا .

- أنت ؟! لا يا عزيزي هنري . أنت العقل بعينه .

أنت أعقل مما ينبغي . آه يا سيدي . لقد تبين لي أنك

أعقل مما كنت أتصور . هنيئاً لك !

قالتها سوزى في إطراق وفي شيء من الغضب

المكتوم . وأطرق هنرى ايضاً ، وجعلت يده تعبت
بدفتر التذاكر على حافة الشباك . وطال بينها صمت
قطعه كلو تيلد حارسة المقاصير ، صائحة من جوف
مقصورة :

- مسيو هنرى ! انعد مكان الأوركستر ؟

فانتهز هنرى الفرصة ليخرج من موقفه . واسرع
إلى قاعة المسرح وتوسط صفوف المقاعد وصاح :

- ايها الحقاء كلو تيلد ! الليلة رواية «الأريزية» !

أريدين «الأريزية» بغير موسيقى ! اعدى محل
الأوركستر حالا ايها الشمطاء !

وعاد السكون إلى المكان . واراقت سوزى ان

تعود إلى تلاوة قصة « لاجارسون » التي كانت تشغل
وقتها الخالي بقراءتها كلما خفت وطأة العمل . لكن شيئاً
في رأسها حال بينها وبين الكتاب ، فجعات تنظر في فضاء
المكان دون ان تثبت بصرها في شيء بعينه . وحانت

منها نظرة عارضةً إلى تمثال فولتير الرخامى أمامها فى
الردهة ، وعلى شفتيه تلك الابتسامة الساخرة المشهورة ،
خركت أهدابها قليلاً وكأنما راعها شىء منه ، لمكنها
تمالكك وهزت كتفها واخرجت من حقيبة اليد
بجانبتها علبة أنيقة الشكل ومرآة صغيرة وجعلت تظلي
وجهها الجميل حتى ظهرت كلوتيلد تقول فى غضب :
- اسمعت شتائمه !

فقال سوزى فى غير اكتراث :

- من ؟

فأجابت العجوز وقد استندت إلى مكنتها :

- « الرئيس » ! اما رأيت سوء خلقه اليوم ؛ إنه

لا ريب قد حدث بينكما شىء يا مدموازيل سوزى ، إن

خلقه لا يسوء إلا يوم يكون الأمر بينكما ...

فتهدت سوزى تهدياً خفيفاً ، وابتسمت ابتسامة

فارة ، ولم تجب .

ليث محسن في مجلسه من المقهى الذى امام
الأوديون يحكى قدحاً من القهوة ممزوجة باللبن ويتأمل
تلك الأعمدة العظيمة التى يقوم عليها بناء المسرح الفخم .
ولا تبرح عيناه الباب كأنما هو باب فردوس لا يدري
اهو من داخله ام كتب عليه ان يظل دونه من الضالين .
ولم يقطع عليه تأمله غير حركة ففى وفتاة من اهل باريس
يتعانقان خلفه ويقبل أحدهما الآخر علانية كما اعتاد
الباريسيون ان يفعلوا غير حافلين بعاذل او رقيب .
فأزور محسن عنها برأسه غير راض ان تعرض العواطف
هذا العرض فى الشوارع والطرق فتبتدل وهى التى
ينبغي لها ان تحفظ فى الصدور كما تحفظ اللآلىء فى
الأصداف . وبينما محسن فى تأمله إذا كف قد وضعت
على كاهله فالتفت فرأى اندريه يبسم له ويقول :
- ماذا تصنع هنا أمام الأوديون أيها الفتى الشارد ؟!

- أنت؟ دائماً أنت ورائي هكذا !
- ماذا تفعل هنا؟ أجب وأسرع !
فتردد محسن قليلاً، ثم أشار إلى المسرح قائلاً :
- إني أتأمل هيكل الفن .
فغمز أندريه بأحدى عينيه وقال :
- بل قل هيكل الحب .
- كلاهما واحد . أحدهما حال في الآخر ، كالنور
في الصباح .
- أهي هنا ؟
- هي هنا ، ورواية «الأرليزية» هنا . آه ! ...
ما أجملها وما أجمل الرواية ، نثراً وموسيقى ؟ هنا
في هذا الهيكل قد امتزجت صورتها في نفسي بصدى
انغام « الأترمتزو » ورقصة « الفراندول » !
- ألم تقدم إليها بعدباقة الزهر أو عطر الهوبيجان !
- لا زهر ولا عطر . إنها أعظم قدر أعندى وأجل

خطراً من ان اقدم لها شيئاً او ان اوجه إليها كلاماً !
فبدا العجب في وجه الفرنسي . وخيل إليه انه
يسمع الغازاً وطلاسم لا قبل له بفهمها . فهز كتفيه
مريحاً نفسه :

— تلك ولا شك فلسفة شرقية !

— وانت كيف عثرت على ؟ وما حضورك هنا

الساعة ، والعمل في المصنع قائم على قدم وساق !؟

— لا مصنع اليوم ولا قدم ولا ساق . الم تقرأ

صحف الظهر ؟ قد اضرب العمال في مصانع « كور بقوا »

اضربنا جميعاً إلى ان يعدوا بالنظر في مطالبنا . وأما

العشور عليك ومعرفة مقرك الآن فليس من العضلات .

وابتسم أندريه في خبث ، ثم مديده إلى صديقه

قائلاً :

— والآن ، هلم بنا !

فنظر إليه الفتى دهشاً قلقاً :

- أين؟

- نحضر اجتماع العمال .

- وما شأنى أنا والعمال؟

- زهة قصيرة .

- زهة ! آه ياسيدى ! بعض عطفك وكرمك !

أخبرنى متى ترحمنى من هذا الذى تسميه : « زهة
قصيرة ! » .

- يسرنى دائماً أن تذهب معى ...

- وأنا يسرنى دائماً أن تذهب أنت وحدك .

دعنى الآن فيما أنا فيه . إنى كما تعلم لست من العمال
العاطلين . إنك لترى أن لدى عملاً ...

- فى أى مصنع؟

- هنا ...

وأشار الفتى بيده إلى المسرح . فضحك أندريه

وقال :

- أتسمى هذا عملاً؟! آه .. أيها العاشق الشرقى
الذى ينفق أيامه في قهوة يحلم ، وحبيبته على بعد خطوتين !
سمع الفتى ذلك من صديقه الفرنسى فانتفض قائماً ،
وقد لمعت في رأسه كالبرق صور من الماضى . فرأى
قهوة : « الحاج شحاته » فى حى السيدة زينب بالقاهرة
وذكر جلوس عمه اليوزباشى « سليم » الساعات الطوال
يبابها ، شاخصاً إلى دار محبوبته « سنية » ، آملاً أن
يتمسح لون ثوبها الحربرى الأخضر خلف « المشربية » .
وأدرك محسن لفوره أنه يصنع الآن فى شارع
« الأوديون » عين الذى كان يصنع سليم فى شارع
« سلامة » منذ سنوات . أهى المصادفة ؟ أم أن هذا
شئ فى دمه ؟ لا يدرى ، غير أنه يحس قوة ترغمه على
الجلوس قرب مكانها ، وأنه يجب هذا القرب لذاته .
وعاد محسن فجلس . واتسعت حدقتا الفرنسى
دهشة وصاح :

- ألا تستطيع أن تبرح هذا المكان ؟

- إنك ترى بعينيك أنى لا أستطيع .

فأشار أندريه إلى « التيارات » بأصبعه :

- ولماذا لا تذهب إليها فتفاجئها بما فى نفسك ؟

- أنت مجنون !؟

- أنا المجنون !؟؟

لفظها الفرنسى وهو ينظر إلى محسن ولا يجد

كلمات يصفه بها . ومضى الفتى يقول :

- يا عزيزى أندريه . ما زال فى رأسى قليل من

الادراك يكفى لافهامى على الأقل أن مثل هذا الجمال فى

شباك مفتوح للجمهور لا يمكن أن يبقى حتى الآن فى

انتظار قدوم هذا الصعلوك الشارد الذى هو أنا !

- تريد أن تقول إن لها عشاقاً ؟

- ألف عاشق وعاشق . وقد لا يحصون عدداً ،

كل من حولها يجبها ، ذرات الهواء ، وهوام الفضاء ،
ونجوم السماء !

- كفى خيالاً وشعراً . تكلم في الواقع . هل
أخبروك أنها تحب أحداً بعينه ؟
- إنها ياسيدي محبة محبوبه .

١- كيف عامت ؟

- بالفراسة .

فَنَضِبُ مَعِينِ الصَّبْرِ مِنْ صَدْرِ الْفَرَنْسِيِّ وَصَاح :

- الفراسة أيها اللكع ؟ وهذا بابها ، وهذه هي
جالسة ، أكاد أراها من هنا ! أقسم إنني لم أر مثل هذا
في حياتي ...

فلم يحفل محسن لصياحه ، ولم يبدي حراكا . غير أنه
أرسل نظرة إلى باب المسرح ، وخطر له طيف «سليم»
مرة أخرى . وهو اليوم زوج لاحدى قريباته وأب
لولدين صغيرين . وقد شغل وظيفة عسكرية في مصلحة

خَفَرَ السواحل . وأصبح ذا جسم ممتليء ، و « كَرَشَ
مَحْتَرَم » ، أما شاربها القأتمان فقد هوت بهما الأيام ،
وأتخذت حياة ذلك الرجل الشكل المألوف في حياة
الملايين من هذا النمل البشرى ، وقد ذهبت ساعات
جلوسه في قهوة شحاته ولم يبق لها أثر ظاهر في حياته .
طغى الزمن ببحره الطامى على أحلام الماضى ، واختفت
صورة (سنية) من رأس (سليم) ومع ذلك ، فهو إن
بحث اليوم في أغوار قلبه عن خير ساعات حياته لما وجد
أحلى ولا أشهى من تلك اللحظات التى كانت تطير هباء
في جلوس طويل بين اليأس والرجاء ، شاخص الأَبصار
إلى نافذة سنية . ذلك الانتظار الحلو المر ، انتظار شئ
جميل يرجو أن يحدث ولن يحدث . هو كل ما ظفر به
قلب « سليم » ، وكل قلب على هذه الأرض ، من
إحساسات عليا . ماذا بهم ما يتم من لقاء بعد ذلك بين
حبيين ؟ إن خَفَقَ القلب التى كانت تهز كل كيان

(سليم) كلما خطف بصره خيال امرأة خلف المشربية ،
وذلك الصبر الطويل على القهوة في انتظار هذا الخيال .
هو كل جمال الحب ..

واسترسل محسن في تصوراتهِ وتذكاراتهِ ، ففسى
أندريه ، وادرك القنوط الفرنسي فرفع يده في حركة
عصبية :

— لا . حقيقة لا . إني لا أستطيع ان انفق عمري
جالساً هكذا . إن الزمن شيء ، لا تعرفونه انتم معشر
الشرقيين ، ولا يعنينكم أمره !
— لقد تحررنا منه .

فحملق اندريه في محسن ملياً ثم صاح :
— آه ، ايها الشرقيون !.. انتم بلهاء ام انتم حكماء ؟
هذا ما يجير ..

— تلك عبقريتنا !

الفصل السادس

يروى الجاحظ أن رجلا دميما، تزوج إعرابية
حسنا، هامت به فستل في ذلك، فقال: «قرب الوساد
وطول السواد»!

ذكر محسن تلك الكلمة وهو جالس يرمق أعمدة
«الأوديون» من مكانه بالقهوة ذات صباح. فاهتز في
كرسيه ولعت عيناه فرحاً. فقد وجد السبيل الذي
يسلكه مثله. إنه يعرف نفسه؛ فهو كصندوق مقفل
غير مطعم بذهب ولا بفضة، وغير موشى بألوان ولا
برسوم. ولا تبهّر هيئته ولا تغر. ولكن طول الجوار
قد يحمل الصادف عنه على النظر إليه واستطلاع ما فيه.
وهو إن فعل فلا شك واجد في قلبه بعض تلك اللآلئ
التي يبحث عنها الناس. ولكن كيف يدنو منها ذرأ
متصلا وهو غير قدير على أن يذهب إليها الآن ليقرنها

السلام ، وكيف يجد «قرب الوساد وطول السواد» مع هذه ؟ وهو لا يستطيع أن يظفر من وقتها بخمس دقائق ؟ وتذكر عند ذلك شارع سلامة بالقاهرة ، حيث كان يقطن منذ أعوام إلى جوار « سنية » . حقا لو لم تكن يد القدر قد وضعت مسكنه إلى جانب مسكنها لما كان لتلك الفتاة مكان في حياته يوماً ما . نعم . لا شيء اليوم يستطيع أن يخرج من هذا اليأس غير قرب السكن والجوار « طول سواد الليل وبياض النهار » ؛ ولكنه لا يعرف أين تسكن ؟ وكيف تسكن ؟ أجمدها ؟ هذا هو الحلم الذهبي . لا . هذا مستحيل . إن القدر لأقسى من أن يظفره بهذا الحلم . إنها لا شك تقطن مع أهلها ؟ ومع ذلك ماذا يعنيه من هذا الأمر . إنه راض بالقليل . يكفيه منها مجرد الشعور في كل حين أنها هي جارته . بقي عليه أن يعرف مقر سكنها وهذا ميسور . ما عليه إلا أن يتبع خطاها وهي خارجة من المسرح

في المساء : هنا وثب محسن وكأن الأزيمة قد انفرجت .
فهو منذ اليوم لن يتخذ القهوة مطاراً خيالاته المحلقة
بلا جدوى فوق هذا المسرح . ولكنه سينشط ويسير
في طريق الأمل على هدى من أمره . وفرك يديه
ليدفعها من البرد ، ومسح معطفه وقبعته من رذاذ المطر
الذي أصابها ، وقام يمشى في الطرقات يقتل النهار في
انتظار المساء ، متصفحاً تارة وجوه حوانيت الكتب
وتارة (إعلانات) المسارح الغنائية على الحيطان
وحفلات (الموسيقى السانفونية) ؛ إنه حتى اليوم لم يكن
قد عرف موسيقى (بيتھوفن) معرفة كاملة . فان
الحفلات السانفونية القليلة التي حضرها لم تعقد بعد
أسباب الألفة بينه وبين ذلك القلب الكبير ، ولم يقنط
الفتى ، فهو يعلم أن الآلهة لا تكشف سرها لأول
قادم ، وأن الملوك والعظماء لا يظهرون لكل من طرق
أبوابهم . إنما ينبغي الصبر الطويل على الجلوس بأعتاب

الهيكل وأبواب القصور ، والتوسل بالرغبة الصادقة
في الوصول ؛ فان الصبر في الفن وفي الحب هو مفتاح
الطريق . ووقع نظر محسن على برنامج حفلة موسيقية
تعزف فيها السمفونية الخامسة لبتهوفن . تبتدىء بعد
الظهر وتنتهى في المساء الباكر ، فترددوا زمع الذهب .
وجاء الظهر فتعدي في مطعم صغير ثم أسرع إلى مسرح
(شاتليه) ليصغى إلى ذلك الرجل الذى أصغت إليه
أجيال من البشر . هنالك وجد الفتى المسرح يعج
بالناس . فاتخذ له مجلساً متواضعاً في أعلا المكان . وجعل
يشاهد من عل ذلك البحر العجاج من نساء ورجال في
القاعة والشرفات . ولم يتض قليل حتى ظهر الموسيقى
(جابرييل بيرنيه) رئيس الفرقة بعصاه الصغيرة ولحيته
البيضاء القصيرة . فسكن الضجيج فجأة وارتفعت
الأيدي بالتصفيق . ثم خيم على السكان سكون قدسى
كسكون المعابد ، وشعر محسن بالخشوع الذى خاصره

في الكنيسة ذلك اليوم ، وتحركت يد الأستاذ بالعصا ،
فاذا (يتهوفن) يتكلم بلغته السماوية قوية أول الأمر
في ذلك ((أليجرو) الجليل ، حلوة بعد ذلك كأنها
أصوات الملائكة الصافية في ذلك ((أندان)
الهادي ، ثم فياضه بالسرور الداخلي من ذلك
((سكرتزو) المشرق إلى أن تنتهي منه إلى ذلك
الفرح المتفجر من أضواء أنغام ((برستو) الأخير .

نعم . إن هو إلا وحي السماء يتكلم بمختلف المشاعر
العظيمة التي رفعت الانسانية إلى هذه المرتبة ؛ لقد بدأ
محسن يدرك ويحس حقيقة تلك الكلمة التي قرأها في
نيتشه : (كل عواطف البشرية السامية في السنفونية
الخامسة) .

وترك محسن المسرح وهو شارد اللب ، شأنه شأن
بقية الناس . ما زالت نفسه هائمة في ذلك الجو العاوي .
وخرج إلى الطريق فلستقبله الهواء البارد ضارباً وجهه

فعدت في الحال إليه نفسه ، ونظر حوله فاذا الظلام
ينبئه أن الموعد قد قرب . فأسرع في المشى إلى
« الأوديون » ووقف ببابه مستخفياً وراء عامود يرقب
خروج الحسيناء .

دقت الساعة العاشرة . فأقبل شبك التذاكر .
وخرجت الفاتنة تنهادي كالغزال الذي وصفه إسحق
الموصلي بقوله :

شادن لم ير العراق وفيه

مع ظرف العراق دلّ الحجاز

وعرف محسن هذا الشادن من مشيته ذات الدل

قبل أن يرى في الظلام وجهه . فاحتاج قلبه ولم يتحرك

وابتعدت صاحبته ، وهمست إليه نفسه أن انطلق خشية

أن تختفي عن نظرك . فأسرع خلفها وهو كالحائف .

إلى أن بلغت سلم « المترو » الأرضى فنزلت إلى المحطة

بعد أن أبرزت لعامل الباب تذكرة من دفتر معها . وما

إن وصل محسن وأتجه إلى شباك التذاكر وابتاع تذكرة
ودفع قطعة فضية واسترجع بقيتها حتى كان القطار قد
أقبل ومضى بالفتاة . وهو ينظر فاعرا فاه خائب الأمل .
وثاب إلى رُشده بعد قليل . فقال لنفسه : « لم أحسب
حساب دفتر التذاكر الذى معها ! بالطبع ينبغي
أن يكون مع مثلها هذا الدفتر ، وهى التى تقطع
عين الطريق آتية غادية مرتين فى اليوم ! لا بأس .
لا فائدة من الحزن والندم . غداً أعيد الكرة بعد أن
أعد عِدَّتِي ! » ، وجاء الغد فحصل على دفتر تذاكر فى
الدرجة الثانية وانتظرها ثم اقتنى أثرها حتى المحطة . وجاء
قطار المترو فاندفع هو إلى عربة فى الدرجة الثانية ونظر
خلفه فإذا هى تصعد إلى عربة فى الدرجة الأولى . . .
وسار القطار ولا اتصال بين العربات . والمحطات كثيرة
ولم يعرف فى أيتها نزلت الفتاة ! وضاع أثرها أيضاً منه
فى هذه المرة . فسَخِطَ وثار على نفسه صائحاً : إنها الخبيثة

والبله بعينه ! ألا أستطيع أن أقتني أثر إنسان عشرة
أمتار ! ثم هداً وابتسماً وقال كالخالم : « ما كنت أعتقد
أن مهنة البوليس السرى بهذه الصعوبة » .

غير أن هذه التجارب الخائبة قد نفعت الفتى فى
اليوم الثالث ، فقد احتاط للأمر من كل جانب . ولم
يغفل عن الفتاة طرفة عين . وصعد معها فى عربة واحدة
وجعل يراقبها عن كسب دون ان يظهر لعينيها حتى بلغ
المترو محطة « بورت دى ليلاس » فنزلت . فأسرع
ونزل خلفها . . . وسارت فى طريق طويل ، تنبت على
جانبيه اشجار الزيفون والكستناء فتابعها متوارياً بين
لحظة واخرى خلف جذوع الأشجار ، إلى ان بلغت فندقاً
يدعى « فندق زهرة الأكلسيا » فدخلت . . .

لم يفعل محسن شيئاً بعد ذلك . غير انه عاد أدراجه
وهو لا يمشى على الأرض . . . ولكنه يطير راقص القلب .
فقد عرف منزلها .

وفي صباح الغد نهض محسن مبكراً وفتح حقيبته
وحشر فيها ثيابه وكتبه حشراً ، وودّع المرأة العجوز
الدهشة على عجل . . . وأعطاه رسالة سريعة كي تسلمها
إلى أندريه وزوجته ، ووضع أمتعته في « تاكسي » ،
وهو يقول للمرأة العجوز : قبلي عنى الصغير « جانو » .
غداً يخبرك أندريه عن سر هذا كله . . . إلى اللقاء . . . !
والتفت إلى سائق السيارة وهمس : (إلى بورت دى
ليلاس فندق زهرة الأوكاسيا) !
وما كادت تختفي السيارة حتى ثابت العجوز إلى
رشدتها وقالت متنهدة :

— هذا الذى كنا نحسبه عاقلاً ؟

كانت السيارة تسابق الريح ، وقلب محسن يسابق
السيارة ، وهو كأنه قد ظفر بايوان كسرى ! ما كل هذا
الفرح ؟ ألا أنه رآها تدخل فندقاً ! وإذا ظهر بعد هذا

كله أنها لا تقطن هذا النزل وأنها ذهبت زائرة . أما
كان ينبغي له أن يترث ويستوثق من الأمر قبل هذا
الركض الجنوني بامتعته !

هنا اصفر وجهه قليلا ، وخشى أن يكون قد فقد
أثرها أيضاً هذه المرة . غير انه لم ير إلا أن يبعث في
السير وان ينزل هذا الفندق فقد فات اوان الرجوع ،
ووقفت السيارة بباب الفندق وانزلت الأمتعة وقادته
المديرة إلى الحجرة رقم ٤٨ في الطابق الخامس .

وكان كل ما يطمع فيه محسن وقتئذ ، ان يعرف
هل تقطن هنا حقاً صاحبتة ؟ وفي أى طابق وأى
حجرة ؟ ولكن كيف يوجه السؤال وهو لا يعرف
اسمها ؟ ودخل الفتى حجراته ، فألفاها صغيرة نظيفة ،
ذات نافذة تطل على فضاء (فهذا الحى هو طرف قصي
من اطراف باريس وباب من ابوابها) ، كما انى مطبخاً
صغيراً ماحقاً بالحجرة ، معداً بأحدث معدّات تهيئة

الطعام ، من موقد وفرن صغير يشعل بغاز يأتي في
أنابيب ، إلى أدوات لشواء اللحم ، وخزائن لوضع الأواني
وحوض ماء . فهذا الفندق معد لسكن الأسر الفقيرة ،
وكل حجرة بملحقها معدة كأنها مسكن مستقل .

ولبت محسن في حجرته ذلك اليوم يشتغل باخراج
أمتعته وكتبه وتنظيم أمره في تلك الحجرة . وهو يقول
فرحاً : « لقد أصبح لي مطبخ ، إني سأحتاج إليه من
غير شك أيام العسر والإفلاس . فان أكلة في المطعم
تنفق على هذا المطبخ البسيط ثلاثة أيام ! » .

نام محسن ليلته الأولى في ذلك المقر الجديد نوماً
ثقيلاً . فلقد قرأ البارحة كثيراً وتأمل كثيراً . وهو
إذ يفعل ذلك لا يستيقظ دائماً قبل التاسعة ، ولكنه في
هذا الصباح نهض قبل السادسة وثباً من فراشه على
صوت فاتن يغني كأنه طائر جميل هذه الأغنية

المشهورة في رواية «كارمن» :

« الحب طفل بوهيمي . . .

لا يعرف أبداً قانوناً . . . »

فأسرع إلى النافذة وبحث عن الصوت فإذا فتاته
في (روب دى شامبر) نسائي من الحرير الأبيض تنظم
(أزهار البنفسج) في أصص على حافة النافذة التي تحت
نافذته ! هي ؟ هنا ؟ تعيش في حجرة أسفل حجرته !
وثب قلب محسن ونبض نبضات : خيل إليه أنها
سمعتها ، ولكنها مضت في غنائها :

« إذا لم تحبني فأنا أحبك

وإذا أحببتك فالويل لك ! ... »

الفصل السابع

أسرع محسن وارتدى ثيابه ووقف بيباب الفندق ينتظر خروجها . فهو قد أدرك أنها لا بد خارجة بعد قليل . وهو يعلم أن شباك تذاكر «الأوديون» يفتح في الساعة الحادية عشرة . ولم يحب ظنه . فقد سمع صوتها بعد لحظة وهي تنزل السلم سائلة صاحبة المنزل عن بريد الصباح . فلستعد وضبط أعصابه . وما كادت تدنو منه حتى تقدم إليهما ورفع قبعته السوداء فرفعت الفتاة أهدابها الجميلة وسددت إليه عينيها الفاروزيتين . فارتج عليه ولم يعرف كيف يبدأ الكلام . وخيل إلى الفتاة أنها رأت هذا المعطف وهذه القبعة السوداء من قبل . وبدا على وجهها أنها تذكرته . فثار أي محسن منها ذلك حتى قال للفور :

— نعم . أنا هو . . .

فابتسمت قليلا . غير أنها قالت :

- هو من ؟ ...

فخجل الفتى وارتبك . ورأت الفتاة خُشونة ردها

عليه فلستدركت :

- إن لم أخطئ الظن فأنت يا سيدي «زبوني» !!

- نعم . أنا هو «زبونك» الدائم . ولى الشرف

أن أكون كذلك . . .

- وما جاء بك إلى هذا الحى الذى لا يعرفه

الأجانب ؟ معذرة من فضولى !!!

- فضولك يا سيدي هو كل ما أرجو وما أحب

جاءنى إلى هذا الحى . . . الفضول . . .

فابتسمت وقالت :

- أيضاً !!

- بل . . . شئ أكبر جدا من هذا . . .

واحمر وجهه قليلا . وخشى أن يكون الموقف قد

طال . . وأنه قد قطع عليها السير . فأبدى لها أسفه
سريعاً . . وتنحى عن طريقها واستأذنها في أن يسير إلى
جانبها قليلاً حتى يتم حديثه . . فأذنت له ومشيا إلى
محطة المترو وهو يقول :

— إني جئت إليك أحجز محلاً لمشاهدة قصة
هذا المساء ! .

— شباك التذاكر ليس هنا ! إنه هناك في المسرح .
— وما يمنع أن يكون في أى مكان تجلين فيه !
هو الذى يجب أن يتبعك . . . ككل شئ، وكل
إنسان !

فالتفتت إليه تستجلى أمره وكأنما أدركت
قليلاً حقيقة غرضه :

— وكيف عرفت أنى أقطن هذا الحى وهذا
الفندق ؟

— عجباً ! أتقطنين هذا الحى وهذا الفندق !! إذن

أنت تقطين هذا الحى وهذا الفندق !
فنظرت إليه فاحصه كمن ينظر إلى مخلوق عجيب
لكنه مضى يقول :
- وافرحته ! أنا أيضاً أقطن هذا الحى وهذا
الفندق !

فقالت فى لهجة المستريب :

- منذ زمن طويل !?

- منذ ... لست أدري ... نعم منذ زمن طويل !

فلم تنبس الفتاة . وساد بينهما صمت عميق . . .
وشعر محسن يردد يكتنف الموقف ورأى محطة الترو قد
أصبحت منها على قيد خطوات . وخشى أن تضطره هى
نجاة إلى الاقتراق عنها ولم يقل بعد شيئاً يثبت إلى
الأرض هذه الصلة الطائرة . . . فاندفع يقول فى
غير تبصر :

- ما أجل هذا الصباح ! لقد استيقظت على أغنية

« كارمن » تتصاعد من نافذة تحت نافذتى ! لكن ...
بأى صوت وأى غناء !

وكان الفتاة لم تسمع شيئاً . فقد لزمت الصمت .
وكانت قد دنت من سلم « المترو » الأرضى . فالتفتت
إلى محسن ومدت يدها إليه قائلة فى صوت كانه
تحفظ . كأنها تخاطب شخصاً لا تعرفه ولا تحرص على
أن تعرفه :

— عم صباحا يا سيدى !

وهبطت السلم واختفت فى لمح البصر تاركة الفتى
فى مكانه كتمثال من الرخام قد غطاه الجليد !

تاب محسن إلى رشده ولكن الدهش لم يفارقه .
لماذا تركته على هذا النحو ! أ كان مسرفاً فى حديثه ؟
لكن لماذا ؟ وماذا كان يجب عليه إذن أن يقول !
واسترسل فى التفكير برهة يقاب الأمر على

وجوهه . إلى أن انتهى به حديث النفس إلى شاطئ هادئ : الرجاء ، والرضى بما حدث حتى اليوم . فإن حياته منذ اليوم إلى جوارها شيء ليس بالقليل . بل إنه الآن يستطيع أن يعرف عنها الكثير . يستطيع أن يعرف اسمها على الأقل . وأن يعرف مع من تعيش هنا ؟ ولم يفكر محسن أكثر من ذلك . فقد جرى لساعته إلى الفندق وصعد إلى الطابق الرابع وبحث عن الحجرة التي تقع أسفل حجرتة وقرأ رقمها : « ٣٨ » .. ثم نزل في الحال إلى صاحبة الفندق فحياها في ابتسامة رقيقة وحرك شفتيه متردداً لا يدري بعد كيف يصل إلى غرضه دون أن يبدو عليه شيء . ولكن المرأة ابتدرته :

— أراض عن حجرتك يا سيدي ؟

ففتح هذا السؤال للفتى الطريق :

— لا بأس بها . وإن كنت أفضل الحجرة السفلى ؟

— السفلى ؟ في الطابق الرابع ؟ إنها مشغولة يا سيدي !

-- تشغلها أسرة ??

-- كلا يا سيدي بل آتسة بمفردها !

فأخفى الفتى سروراً كاد يشرق به وجهه :

-- بمفردها !

ثم استطرده في الحال :

-- نعم . ان الحرب الكبرى قد جعلت الفتاة هنا

كالشباب ، تسعى وراء رزقها بمفردها . نعم . هذه الآتسة

ان صدق ظني ؛ فهي عاملة شباك التذاكر بمسرح

الأوديون !...!

-- صدق ظنك يا سيدي .

-- نعم . اني أختلف الى الأوديون كثيراً... هي ،

ان صدقت ذا كرتي : مدموازيل ... ماري ؟

فابتسمت المرأة ابتسامة . لا احد يدري ان كانت

تتم عن خبث ومكر وادراك ، او انها لا تتم الا عن

بساطة وملاطفة :

— خانتك ذاكرتك هذه المرة يا سيدي . إنها

تدعي مدموازيل سوزى ديبون !

— سوزى !

انزلق هذا اللفظ من بين شفثيه وهو في نَشْوَة
من فرح داخلي يشبه الذُّهول . وتنبه من فوره وضبط
نفسه والتفت إلى المرأة وقال :

— أشكرك يا سيدي على هذا الوقت الذي أضعته

عليك ... أشكرك !

ثم تركها وخرج إلى الطريق سريعاً يهيمس :

— سوزى !

الفصل الثامن

أنفق الفتى ما بقي من ذلك الضحى هائماً على وجهه
في طرقات ذلك الحى . جاعلاً من شأنه البحث عن
مطعم رخيص . يلجأ إليه في أيام الضنك . وهى كل
الأيام . عدا اليوم الأول والثانى من كل شهر . وقد
وجد ضالته في شارع «مونيامونتان» . . . إنها شبه «حانة»
توسم فيها النظافة مع قلة النفقة . فقد قرأ في لوحة من
ورق «الكرتون» معلقة على بابها أن ثمن الأكلة
الكاملة مع زجاجة من النبيذ خمسة فرنكات بالتمام .
وكان الظهر قد أقبل . وأحس محسن الجوع . فدخل
ذلك المطعم واتخذ له مجلساً فى احد الأركان . وجاءه
الغلام . فطلب إليه شريحة من لحم الثور مشوية مع
البطاطس . واعتدل فى جلسته مطمئناً يفحص وجوه
الحاضرين . إنهم جميعاً من طبقة العمال . اولئك الذين

يَبْدُونَ الشوكَةَ والسكين ويقطعون الخبز واللحم بِمَدِيَّةِ
الجيب .. !

ولكن الفتى لم يَأْنَفْ من تلك السواعد العارية .
والجباه المتصببة عرقاً ، والثياب التي تقطر بؤساً .
فحسب لا يشعر دائماً انه في مكانه إلا بين امثال هؤلاء ،
وهو يوم يدفعه الرخاء إلى مطعم فاخر ، فانه يدخله دائماً
خائفاً كالغريب ، وجعل الفتى يَقْضِمُ رَغِيْفَهُ قِضْمًا خَفِيْفًا
في انتظار الغداء ، ويصغى في أعماق نفسه إلى تلك
الرباعية من رباعيات عمر الخيام : « اذا اردت ان تعرف
الصفاء والسلام ، فاحدب علي تعساء الحياة : اولئك
الضعفاء الفقراء الذين يرتعدون في شقة — أمهم ، عندئذ
تظفر بالسعادة ! »

نعم انه فعلاً يجد في نفسه الآن شيئاً من تلك
السعادة الهادئة الصافية في هذا المكان المتواضع .
وسمع جواراً على مقربة منه ؛ بين صاحب المطعم البدين

وبين عامل من العمال صاحب الوجه حاد النظرات :

— لن اتناول اليوم لحماً ، انى مريض .

فقال صاحب الحان مشفقاً :

— نعم . ارى ذلك . انك تعيش وحدك فيما اعلم

يا مسيو ايفان ! ...

— انى دائماً وحدى فى الحياة .

هذه العبارة الأخيرة استرعت التفات محسن ،

لأنها ذات نغم حزين ، بل لأن الفتى كان يتصور أنه

هو وحده الذى يحيا دائماً وحده فى الحياة . انه يعلم ان

المعتزلة اليوم قليل ؛ ولكن يشعر بحب وتقدير لا أولئك

الذين لا تطيب لهم السكنى الا داخل انفسهم . ذلك ان

قليلاً من الناس من يملك نفساً رحيمة غنية يستطيع ان

يعيش فيها وان يستغنى بها عن العالم الخارجى . انه يعتقد

دائماً ان الزاهدين الحقيقيين ليسوا الا اناساً لهم نفوس

كالفراديس ، تشقها الأنهار ، وتيرها الشمس ،

وتتلاً فيهما الكنوز ، فهي عالم من الفتنة والسحر .
لا نهاية لبدائعه وأسراره ...

وأبطأ طبق الحساء على جاره العامل المريض ،
فأبصره قد أخرج من جيبه كتابا ، جعل يلبهم صفحاته
بدل الطعام ، وود محسن لو عرف عنوان الكتاب .
ودفعه حب الاستطلاع إلى أن يميل بجسمه ويختلس
النظر ، ففاجأته عين الرجل ، فارتبك الفتى وأشار إلى
الكتاب :

— معذرة ! هذا الفضول مني ، إنني أحب الكتب ،

لا شك أنه كتاب لذيذ !

فأرسل إليه الرجل نظرات عميقة . ولم يقل شيئاً ،
لكنه مديده وأرى الفتى العنوان على الغلاف ، فاستطاع
محسن أن يقرأ :

— « رأس المال » : كارل ماركس .

لم يمض النهار حتى نشأت صداقة ودیعة بین محسن
وذلك العامل الفقير ، وقد أنس أحدهما إلى الآخر كما
يأنس الغريب إلى الغريب ، وهو الواقع . فهذا الرجل
روسی ترك بلاده منذ بضعة أعوام ، وهو أيضاً من
أولئك الذين يعيشون على القراءة والتفكير والوحدة .
وقد دعا الفتى إلى حجرته الصغيرة التي يقطنها في إحدى
دور العمال . فرأى محسن الكتب مكدسة في كل مكان ،
ولم يستطع محسن شيئاً عن دخیلة الرجل ، لكنه
أحس أن الرجل قد فرح بمعرفته فرحاً عميقاً . فقد
قال وهو يعد له الشاي على موقد في أحد الأركان :

- لكم أشعر أن وطأة مرضى قدخفت قليلاً منذ
لقائنا ، لست أدري لماذا ؟

وقدم للفتى قدح الشاي ، وجلس هو على صندوق
قديم من الخشب الأبيض . فقد أكرم ضيفه

بالكرسى الوحيد في الحجرة ، ورشف محسن رشفة
وهو يقول :

- وأنت يا مسيو إيفانوفتش ؟ ألا تحب الشاي ؟
- إني أفضل جرعة من «الفودكا» . آه إن هذا
الشراب مع «تولستوى» ، هما كل ما أحب الآن من
الروسيا .

ولمح محسن بعض المرارة في كلام الرجل ، فقال له
في سداجة :

- كيف ذلك ؟ إن روسيا الآن هي جنة الفقراء .
فأجابه الرجل كالمخاطب لنفسه :
- أتظن ؟ إن جنة الفقراء لن تكون على هذه
الأرض .

وصمت الرجل قليلاً ثم قام إلى زجاجة «الفودكا»
فتناول منها جرعة وهو يقول :
- أنت أيضاً ممن يعتقدون في هذه الخرافة : جنة

الفقراء ! إني فكرت في أمرها كثيراً ، ومن ذا الذي لم يفكر فيها ؟ تلك مشكلة الدنيا التي لم تحل : «وجود أغنياء وفقراء وسعداء وتساء على هذه الأرض . من أجل هذه المشكلة وحدها ظهرت الرسل والأنبياء ! - يا مسيو إيفان . لست أرى رأيك في أن المشكلة لم تحل ! إن الأنبياء قد جاءوا من السماء بخير الحلول .

فتفكر الرجل قليلاً ثم قال كالمخاطب لنفسه :
- أنبياءكم أنتم .. نعم هذا من الجائز ... إن الشرق قد حل المعضلة في يوم ما . هذا لا ريب فيه . إن أنبياء الشرق قد فهموا أن المساواة لا يمكن أن تقوم على هذه الأرض . وأنه ليس في مقدورهم تقسيم مملكة الأرض بين الأغنياء والفقراء . فأدخلوا في القسمة « مملكة السماء » . وجعلوا أساس التوزيع بين الناس «الأرض والسماء» معاً . فمن حرم الحظ في جنة الأرض ،

فحقه محفوظ في جنة السماء . هذا جميل . ولو استمرت
هذه المبادئ، وبقيت هذه العقائد حتى اليوم لما غلَى
العالم كله في هذا الأتون المضطرم . ولكن « الغرب »
أراد هو أيضاً أن يكون له أنبياءؤه الذين يعالجون
المشكلة على ضوء جديد . وكان هذا الضوء منبعثاً هذه
المرّة من باطن الأرض لا آتياً من أعلى السماء ، هو ضوء
العلم الحديث . فجاء نبينا « كارل ماركس » ومعه إنجيله
الأرضي : « رأس المال » وأراد أن يحقق العدل على
هذه الأرض ، فقسم « الأرض » وحدها بين الناس
ونسى « السماء » ، فإذا حدث ؟ حدث أن أمسك الناس
بعضهم برقاب بعض . ووقعت المجزرة بين الطبقات
تهافتاً على هذه « الأرض » !! .

وتأمل محسن قليلاً هذا الكلام . ثم قال

كالمخاطب لنفسه :

— كمن يلقى تفاحة بين أطفال يتامظون !

- لقد أتى قبلة « المادية والبغضاء والبهمة
والعجلة » بين الناس ، يوم أفهم الناس أن ليس هنالك
غير « الأرض » ؛ يوم أخرج « السماء » من الحساب لأن
علم الاقتصاد الحديث لا يعرف السماء . أما أنبياء الشرق
فقد ألقوا زهرة (الصبر والأمل) في النفوس يوم
قالوا للناس (لا تنهاكوا على الأرض ، ليست الأرض
كل شيء . إن هنالك شيئاً آخر غير (الأرض) يدخل
في (التوزيع) . آه إن أنبياء الشرق هم العباقره حقا !!
وصمت الرجل قليلاً ثم مضى يقول :

- إن روح (المسيحية) كما نبعت في الشرق : هي
المحبة والمثل الأعلى . وروح (الاسلام) الايمان والنظام ،
ومسيحية اليوم في الغرب هي (الماركسية) وهي كذلك
لها مثلها الأعلى : لا في محبة الناس بعضهم بعضاً وتبشير
الفقراء (بملكه السماء) ، وخصهم على إعطاء ما يقصر
لقيمصر وما لله لله ، بل باغرائهم بملكه تقام على أنقاض

طبقة وأشلاء طبقة ، ونصحهم بالهجوم على قيصر ،
وأخذ ما لقيصر ، وإن (إنجيل) هذا الدين : كتاب
(رأس المال) نجد أيضاً في بعض صفحاته تنبؤات مخيفة ،
كتنبؤات (يوحنا) في رؤياه . ففيه توعد بانهيار هذا
العالم وحلول علم آخر قوامه العمال وخدم : أى أجسام
تسير بغير رؤوس فوق المناكب . ياله من حلم مخيف !
أما (إسلام) العصر الحديث في الغرب فهى
(الفاشستية) . وهى كذلك لها طابع الايمان والنظام .
إيمان لا بالله ، بل (بزعيم) من البشر . ونظام لا يؤدى
إلى التوازن الاجتماعى بالتواضع والزكاة . إنما هو نظام
فرصته يد الإرهاب ليؤدى إلى مطامع الاستعمار ،
والوثوب على الضعيف من الشعوب . ولهذا الدين أيضاً
(كتابه) وخطبه (المنبرية) الملتهبة ، لا بجملة عقيدة
سماوية ولكن بجملة قوة حيوانية وشراة دموية .
آه أيها الصديق . تلك هى الديانات التى استطاع الغرب

أن يخرجها للناس ، يوم أراد أن يزاحم الشرق ويخرج
للعالم أديانا !

فرفع محسن رأسه بعد إطراق طويل :

— يدهشني منك هذا القول يا مسيو إيفانت ،

وأنت من العمال !?

— نعم ، أنا من العمال ، ومن الفقراء . . . لكن ،

لى من سوء الحظ رأس يفسكر . إني أعرف أن وعود
أديان (الغرب) الجديدة كلها هراء . وإن هو إلا تغرير
بالعمال والفقراء . إن (الماركسية) و (الفاشستية) قد
أخذا عن أديان (الشرق) طرقها وأساليبها ، وفيها
جيداً أن كل خُطّة النبي هي استمالة الساخطين والمتذمرين
والمعوزين وعم الكثرة الغالبة . هكذا فعل عيسى
ومحمد . هل تبعها أول الأمر غير العبيد والأرقاء
والفقراء والضعفاء ؟ ذلك أن طبقة الراضين والموسرين
ليست في حاجة إلى أن تتبع أحداً ! وهى مع ذلك قلة

نادرة وسط خِصَمِّ الدهماء . فالدهماء هم سَنَد الدين ، وهم
القوة في كف النبي . لقد أدرك ذلك جيداً أنبياء أوروبا
في العصر الحديث ودرسوا « Technique » النبوة على
أيدي الأساتذة الشرقيين . فبنوا كل شيء على أساس
واحد : الدهماء . وجعلوا يتنافسون في إرضاء هذه الكتلة
الآدمية بالوعود : وعود واقعية قريبة الأجل ، (وهنا كل
غُباة هؤلاء الأنبياء !) .. إن التنافس بين الدينين ليبدو
لي شديد الخطر .. وإني لأتنبأ لك منذ الآن بوقوع
نوع من (الحروب الصليبية) بين (الماركسية)
(الفاشستية) ! تحشد فيها الدهماء ضد الدهماء . وتتناثر
فيها الجثث وتتطاير الأشلاء .. هذا كل مكسبنا . إنهم
لن يبقوا لنا حتى على ذلك الوهم اللذيذ والعزاء الجميل
الذي غمرنا فيه أنبياء الشرق الحقيقيين ..

— أي وهم وأي عزاء ! ?

— جنة السماء ومملكة السماء !

— أسمى هذا وهما ؟

— آه معذرة .. معذرة ! إنك مؤمن ! ما أسعدك

أنت ! وما أحسن حظك !

الفصل التاسع

خرج أندريه من العمل في استراحة الغداء ،
فوجد رسالة من محسن تنتظره . فلم يدهش . ان رسائل
محسن اليه قد كثرت منذ أن غادر منزل الأسرة في
(كوريفوا) جاريا خلف قلبه ، فض أندريه الرسالة وقرأ :
عزيزى أندريه :

لم أزل أستيقظ على غنائها ، لكن هذا الصباح قد
حدث أمر جَلَل ، بينما أنا قرب النافذة أصغى اليها خفية
إذا الباب يطرق وإذا (الفسالة) قد حملت الى ثيابي
النظيفة وقدمت الى ورقة الحساب : عشرة فرنكات ،
فلمعت في ذهني عند ذلك فكرة أعجبتني وأرجو أن
تعجبك ، ذلك أنى تناولت الورقة وسطرت في ذيلها :
(سيدتى : لا أجد معى الساعة نقوداً ، فاذا تفضلت
وأديت عنى الحساب فانى لا أنسى لك هذه اليد . ولك

جزيل الشكر سلفاً مع احترام المخلص : جارك رقم ٤٨)
ودفعت الورقة إلى الغسالة وأحلتها على الحجر السفلي
التي تقطنها جارتى مدموازيل «س» ! ومضت الغسالة
بالفعل . وبقيت أنا أرتجف قلقاً . أتراها تؤدى عني ؟
واخجلتاه إذا رفضت ! وإذا قبلت فما يكون معنى هذا !
ينبغي أن أبادر فأبشرك . لقد عادت الغسالة إلى بعدهنية
تقول في ابتسام إن مدموازيل «س» جارتى قد دفعت
في الحال دون أن تنيس بلفظ .
ماذا تقول في كل ذلك ؟

(محسن ...)

ابتسم أندريه وطوى الرسالة . وأشعل لفافة تبغ
ودخن قليلاً ثم أخرج ورقة وكتب :
عزيزى محسن :

ماذا أقول في كل ذلك ؟ أقول إن عهدى بالمحبين
أن يظهروا دائماً أمام الفاتنات بمظهر النعمة واليسر

والرخاء . وأن يكونوا هم على الأقل الدائنين وقت
الافتضاء . ولكنك قد عكست الوضع وأصبحت مدينا
لفانتك بكل شيء . أي : (بالقلب وبفاتورة الحساب)
إن مسألة التجائك في الاقتراض إلى مدموازيل (س)
ولما تتوثق بينكما المعرفة لغاية في الجرأة ! وإني لأعجب
جدا لهذا الحادث . وأرى فيه فجر عهد جديد في
تاريخ الغرام م

(أندريه ...)

مرت أيام بعد ذلك والفتاة تصادف الفتى ، تارة
بباب الفندق وتارة في المصعد . ولا غرابة في ذلك ،
فهما متحdan في المسكن . إنما الغريب في الأمر انه
منذ ان ادت عنه الحساب لم يعد يقبل عليها ذلك الإقبال
الذي كانت تراه منه . ولم يعد يجيها الاتحية مختصرة ،
وإذا جمعها المصعد فهو مطرق لا يريد ان يتكلم . ولا

ان يشير بحركة تنم عن اهتمام لا أمرها . هو الذى كان
ينتظر منه على الأقل ان يبادر فيشكرها على عطفها
الكريم . انه لم يشكرها . بل انه لم يشر قط الى ما حدث
بذكر او تلميح . وانفردت سوزى في حجرتها ذات
مساء وجعلت تفكر قليلا في امر هذا الفتى الغريب .
اهو شرقى متوحش لا يعرف الآداب واللياقة ؟ لكن
الامر في ذاته ايسر من ان يحتاج الى معرفة بالآداب
او اللياقة . ولا يمكن ان يكون ذلك الفتى جاهلا . انما
هو تصرف مقصود . لماذا ؟ هذا ما لم تهتد اليه الفتاة ،
ان هذا الفتى غريب الأطوار . هذا كل ما تستطيع
ان تفهمه .

لم يكده ينتهى الأسبوع ، حتى تلقى اندريه هذه
الرسالة :

عزيرى اندريه .

الآن . آن الأوان ان أفي بديني . ولا يليق ان
أرد إليها عشرة فرنكات ، إنما يحسن بي ان اقدم إليها
هدية . ماذا ترى ان تكون هديتي إليها ؟ اشر على
سريعاً ما « محسن ... »

فأسرع الفرنسي وارسل الجواب :

عزيرى محسن :

إن باريس كلها لم تخلق إلا للنساء . وكل تجارة
باريس هي في الهدايا التي تقدم إلى النساء . ما عليك
يا صاحبي إلا ان تمشي قليلاً في اى شارع من شوارع
باريس . فانك واجد عشرات الحوانيت التي تعرض
ما تشتهى لصاحبتيك من حقائب اليد ، وصناديق
« البودرة » والقبعات والجوارب والعطور والزهور ،
وقد مضى نصحننا لك في هذا ولم تقبل النصيح ؟
« اندريه ... »

قرأ محسن هذه العبارة وردد كالمخاطب لنفسه في
غير اقتناع :

— حقائب يد وصناديق « بودره » وزهور
وعطور ، اشياء لا معنى لها ، إنك احق يا مسيو اندريه !
ثم مزق الرسالة ووضع القبعة السوداء على رأسه
ونزل الى الطريق هائماً على وجهه طول يومه في شوارع
باريس يفكر ويبحث عن الهدية دون ان يدخل حانوتا
او يرسل عينه الى وجه متجبر . فهو لم يعتد النظر الا
الى واجهات حوانيت الكتب . وقادته قدمه مصادفة
آخر الأمر الى سوق الطيور في الضفة اليمنى من نهر
السين .. وقرع سمعه صوت بيغاء صغير ينادى المارة
بصفيره وكلاته الملقنة . فرجع محسن بصره اليه وتفكر
هنيهة . ثم دخل الحانوت لوقته وابتاع البيغاء ، وخرج
حاملاً قفصاً ينبعث منه صفير وضجيج ، ومشى به مشية
المنتصر الذي ظفر بضالته !! لئلا يسهو خطوات

في الطريق ، حتى وجد القفص الذي في يده قد تبعته
القطط والكلاب الضالة ؛ واذا منظره وهو حامل
البيغاء وكلاب الحي خلفه قد بدأ يستلفت انظار المارة ،
وخشى ان يجتمع حوله العاطلون والصغار . فاستأجر
سيارة حملته مع الهدية الى الفندق . وما إن آوى
محسن الى حجرته حتى خلع ثيابه على عجل وجلس الى
بيغائه طول الليل ساهراً يلقنه كلمات وعبارات ،
الى ان رضى عن هذا التلميذ الصغير ، فوضع في عنق
قفصه حبلاً رقيقاً وفتح نافذته وادلى بالقفص في الفضاء
الى ان حط على حاجز نافذة الفتاة ، ثم جعل يناجيه
مناجاة (حافظ الشيرازي) للبيغاء في قصيدته التي
قال فيها :

(ايها البيغاء ! ايها الناطق بالاحاجي ! احرص الى
الأبد على ريشك زاهيا في لون الياقوت ، وعلى قلبك
فياضاً بالمرح ! آه أيها الحظ ، اسكب على وجوهنا

ماء الورد . ولا تبج للصاحي بأسرار النشوة . نعم ، إن
الحكمة هي الثراء الحقيقي ، ولكن ... كم تساوى إلى
جانب نظرة الحب !...)

استيقظت سوزى فى الصباح وانجهدت إلى نافذتها
مترنمة كعادتها . وما كادت تفتحها حتى رأت نفسها
أمام بيضاء فى قفص . فدهشت ثم أبصرت الحبل المدلى ،
فأدركت من أين هبط ، فرفعت عينيها إلى الطابق
العلوى ، وإذا الفتى فى نافذته ييسم لها كأنما كان فى
الانتظار . وحياتها تحية الصباح فردت عليه التحية باسمه ،
ثم أشارت إلى القفص قائلة :

- لمن هذا ؟

- لك .

- لى أنا ؟ شكراً لك يا سيدى ، لكن لماذا ؟

- هذا ما استطعت أن أقدمه إليك اعترافاً بجميلك

فأرجو أن تقبله مني !

- ما أجل هذا البيغاء ! ما اسمه !؟

- اسمه ... « محسن » .

- « محسن » !

وما كادت الفتاة تنطق هذا الاسم حتى صفر

البيغاء وصاح :

- أحبك . أحبك . أحبك !

فضحكت سوزى وقالت :

- عجباً ! من لقنه هذه الكلمات ؟

فأجاب الفتى لفورته :

- لا أحد ... في « عينيه نظر » ، هذا كل ما في

الأمر !

فابتسمت الفتاة لهذا الجواب . وقالت :

- أكرر لك شكري يا ..، مسيو ...

- أَسْمَحِينَ أَنْ أَقْدِمَ إِلَيْكَ نَفْسِي.. وَلَوْ أَنَّ التَّقْدِمَ
مِنْ هَذِهِ النَّافِذَةِ الْعَالِيَةِ لَا يُسْمَى تَقْدِمًا... فَلَا أَصِحُّ
أَنْ أَقُولَ : أَنْ أَتَى إِلَيْكَ بِنَفْسِي !
فَضَحَكَتِ الْفَتَاةُ وَقَالَتْ :

- يَسْرَنِي بِالطَّبِيعِ ذَلِكَ . غَيْرَ أَنِّي لَا أَضْمِنُ لَكَ
الْوَصُولَ سَالِمًا إِلَى نَافِذَتِي . فَالِقَ بِاسْمِكَ وَحَدَهُ الْآنَ
فَهُوَ يَكْفِي .

فَقَالَ الْفَتَى :

- اسْمِي « مَحْسَن » ...

فَنظَرَتْ إِلَيْهِ نَظْرَةَ اسْتِغْرَابٍ :

- كَالْبَيْفَاءِ !؟

- نَعَمْ . لِي الشَّرْفُ أَنْ يَكُونَ اسْمِي كَاسْمِ بَيْفَانِكَ !
فَابْتَسَمَتْ وَلَمْ تَجِبْ ، وَظَنَّ مَحْسَنُ أَنَّهُ قَدْ تَحَدَّثَ
إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي . وَخِيلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ رُبَّمَا أَثْقَلَ عَلَيْهَا .
وَخَشِيَ أَنْ يَزِيدَ فِي الْكَلَامِ ، فَتَبَدَّرَ بِادْرَةِ تَمَحُّوْمِنِ شَفَقَتِهَا

هذا الابتسام ، فحياها سريعا بإشارة خفيفة ، وابتعد عن
النافذة محتفيا لفره عن أنظارها . . . ثم جلس إلى
مكتبه يتأمل الأمر . عجبا . ما معنى الجلوس ، وفيم
التأمل ! لقد كانت أمامه ، وكان بينها حديث . لماذا
تركها ؟ ألا يجدرُ به أن ينهض من مقعده ويعود
إليها ؟ ولكن نافذتها كانت قد أغلقت . . .

الفصل العاشر

شعر محسن حوله يبرد الوحدة . وأراد أن يحدث
أحداً أو يذهب لمقابلة أحد . غير أن الوحيد الذي
يستطيع أن يَفْضِي إليه بشيء هو : أندريه . لا . إنه
ليس مجنوناً حتى يخبر أندريه اليوم بما حدث ، فيسخر
من خيبتته . ويلقى على مسامحه مرة أخرى : «إن المرأة
تكسب بالواقع لا بالخيال » آه الواقع ! الواقع هو .. انه
هو الواقع في حب لا أمل فيه ، ولا يجد إلى جانبه حتى
من يعزبه ، وتذكر ايفانوفتش . نعم ، لعل ذلك الروسي
اللتقى مثله في مجاهل « العزلة » يستطيع أن يسرى عنه
الساعة بحديثه الغريب وإطلاعه وتأملاته ...

وكان المساء قد أقبل وأدرك أن صاحبه لا بد قابع
في حجرته الحقيمة تحت سقف ذلك المنزل العتيق .
فذهب إليه من فوره ، فوجده كما توقع أن يراه جالساً

فوق صندوقه الخشبي . كما يجلس الثرأة فوق
« الشيزلونج » . وبين يديه كتاب ضخم ينهل من صفحاته
كما ينهل الألماني من كوب « جعة » ذي زبد .
فما إن رفع رأسه ورأى الفتى ، حتى أشرفت
أساريره المظامة . وانتعش قليلاً وجهه الذابل ، وطرح
الكتاب من يده . ونهض بهيئاً للزائر مكاناً خليقاً
يجلوسه . فنعه محسن بأشارة سريعة ، وبادر فقعد مثله
على حافة الصندوق . وصمت قليلاً . وبدأ عليه أنه يريد
ان يقول شيئاً في نفسه . ولم يتردد طويلاً . فقد انفجر
على الرغم منه :

— يا مسميو إيفان ! إني لست سعيداً . ولعلك
أنت أيضاً كذلك . إن سر تعاستنا هو أننا نعيش في
هذه الحجرات المغلقة . إننا نجعل الواقع وطرائقه
المباشرة . لا شيء ، يكتسب بالخيال في هذه الحياة . . .
فهز الروسي رأسه ، وابتسم ابتسامة ساخرة وقال :

- من علمك هذا الكلام أيها الشرق !
- هي البدهة ولكن اعيننا هي التي لا ترى ...
- لا . لست أصدقك . ذلك كلام لا ينبغي أن
يقوله مثلك ...

فرطيف أندريه برأس محسن . لكنه لم يقل شيئاً
ومضى إيفان يقول :

— الواقع والطرق العملية المباشرة ؟ تلك بالضبط
كل حياة الحيوان . الفاصل الوحيد بين الانسان
والحيوان هو « الخيال » . إن اليوم الذي يستطيع فيه
الحيوان أن يحيا دقيقة واحدة خارج عالم الواقع والمادة ،
اليوم الذي يلجأ فيه الحيوان إلى طرق معنوية غير مباشرة
للوصول إلى غايته ، اليوم الذي يستطيع فيه الحيوان
أن يمضى الليل « بحلم » في غابته القمرية بدلاً من مطاردة
الفريسة . هذا اليوم يكون آخر عهده بالحيوانية . الحلم
هو العالم العلوى الذي لا يدخله حيوان . الخيال هو تاج

السيادة والسمو الذي تميز به الانسان !

ونسكت لحظة . فقال محسن :

— نعم ، ولكن «الواقع» ..

فانطلق الروسى :

— «الواقع» ؟ الواقع ... إني لا أحترم الآن

كثيراً هذه الكلمة !

ومر طيف اندريه مرة اخرى برأس الفتى .

حقيقة . إن صديقه الفرنسى هو الذى يذكر دائماً هذه

«الكلمة» ؛ ولكن هذا الروسى الثائر ، الواقف

فى منتصف الطريق بين الشرق والغرب ... من يضمن

لمحسن أنه على حق فى كل هذه التصورات . وبدا الشك

على وجه الفتى ... وقرأ إيفان ما يجول بخاطره . فصاح

به وهو بهزه من كَتْفِيه :

— آه ! (الخيال) هو ليل الحياة الجميل !

هو حصننا وملاذنا من قسوة النهار الطويل

إن عالم (الواقع) لا يكفي وحده لحياة البشر . إنه اضيق
من ان يتسع لحياة إنسانية كاملة ! نعم ، مرة اخرى
اقول لك إنى شديد الاعجاب بأنبياء الشرق . إن
المعجزة الحقيقية التى جاءوا بها : هى انهم قدموا للناس
علماً آخر ، عامراً بسكان من ملائكة ذوات اجنحة
جميلة بيضاء . زاخراً يحنات فيها انهار من التبر واشجار
من الزمرد : راعداً بنيران تتأجج بلهب زرقاء كألسنه
الأبالسة . الهائمة كالحفافيش ... فى هذا (العالم)
استطاعت البشرية ان تعيش ، حياة اغنى واحفل
من حياة الواقع . (الغرب) ايضاً حاول ذات يوم
ان يخلق للناس مثل هذه العوالم . فظهر فيه أنبياء
الخيال منشئوا « الأتيويا » . فصنع توماس مور :
« جزيرة الخيال » . وكامبانيا : « مدينة الشمس » .
وموريللى : « قانون الطبيعة » . وكايبه : « رحلة الى
ايكارى » !! ، ألعاب صبيانية . كتلك القصور والقلاع

والجنان التي يقيمها الأطفال على شاطئ البحر من
الرمال ! نعم . خيال مرتب بيد المنطق مزين بنظريات
العلم والفلسفة . كما تزين قصور الضيعة بأوراق الحلوى
الفضية الذهبية ... لكن كم من البشر عاش في هذه
(العوالم) التي صنعها أيدي (العلماء) أنبياء الغرب ??
آه . إن الغرب إنما عاش أجمل حياته في ذلك الحلم
الساوي وذلك العالم العلوي الذي صنعه الشرق . وإن
ضياع الغرب لم يبدأ إلا يوم أفاق من هذا الحلم . ونزل
إلى عالم واقعه يدب في هضابه المتحجرة ووديانه الجافة
كما تدب الحشرات ...

وسكت الروسي لحظة . ثم عاد يقول :

— آه !.. السماء . الجنة . الجحيم ! جرد علمنا الأرضي
من هذه الكلمات الثلاث التي نبتت في الشرق . تنهار
في الحال أروع أعمالنا الفنية . كل ما استطعنا أن نخلق
من جمال إنما صنع تحت نور شعاع من أشعة مملكة

السماء ، إنى أعرف أن (الغرب) اليوم موضع تقدير وإكبار ، لعلمه واستكشافاته وإنتاجه واختراعاته . لكن .. ما قيمة هذا الى جانب ذلك الاستكشاف الأعظم الذى ظهر فى الشرق ، إن الغرب يستكشف الأرض ، والشرق يستكشف السماء . إن الذى استطاع أن يغمر البشرية كلها فى حلم يدوم الأحقاب ، إن الذى استطاع أن يصنع مثل هذا (الحلم) هو حقيقة فوق مستوى البشر . إننا نجد ذلك الذى أوجد للانسانية واسكن الانسانية : قارة جديدة .. لكننا لا نرى مجد ذلك الذى اصعد الانسانية واسكن الانسانية : السماء !

وتأمل محسن ملياً قول الروسى وهو مطرق ، ...
نعم .. إنه ليشعر دائماً انه لا يسكن الأرض وحدها .
إن حياته ممتدة أيضاً إلى السماء ، وإن له أصدقاء وأحباء
وحماة من القديسين أهل السماء . إنه لن ينسى [السيدة
زينب] الطاهرة وفضلها عليه فى الملمات . إن لها وجوداً

حقيقيا في حياته . ما من مرة وقع في شدة إلا وجد
العزاء عند باب ضريحها ذى القضبان الذهبية . كل نجاح
ظفر به في الحياة هو دفعة من يدها ، وكل عطف هو
نظرة من عينيها . وكل ابتسامة من الحظ إنما هي
ابتسامة من شفتيها . إنه يتخيل هيئتها ووجهها
وملامحها . . . ويعتقد أنها في السماء بردائها الأبيض إنما
تنظر اليه دائما وترعاه وتجعله من شأنها . كأن هذا
هو كل عملها . لكن هنالك ساعات تتجهم له فيها
الحياة . وتقسو عليه الظروف ، ويرى كأن « السيدة »
قد نسيتَه . فيفطن ويذكر لوقته إنه في تلك الساعات
وتلك الظروف ، إنما هو الذي كان قد نسيها ، نعم أنها
لا تنسى الا من ينساها . انسا اهل الأرض لنشغل
احيانا بما نصادف من فوز أو لذة أو متعة فنقع
في غشية من غرورنا . ننسى معها أنفسنا وننسى السماء
وأهلها ، عند ذلك تركنا السماء في حقارتنا الأرضية

وَوَحَدَتْنَا الْبَارِدَةَ . فَلَا نَسْتَيْقِظُ وَنَرَى مَا صَرْنَا إِلَيْهِ إِلَّا
يَوْمَ نَحْتَاجُ إِلَى حَرَارَةِ الْعِزَاءِ وَالِى الْعَطْفِ الْعَلْوِيِّ . ذَكَرَ
الْفَتَى كُلَّ ذَلِكَ . لَقَدْ كَانَ مَسْجِدَ «السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ» هُوَ الْمَكَانُ
الَّذِى يَقْضَى فِيهِ نَهَارُهُ أَيَّامَ الدَّرْسِ . وَكَانَتْ «السَّيِّدَةُ»
هِيَ الَّتِى تَقْلَبُ لَهُ صَفْحَاتِ الْكُتُبِ فِيمَا خِيلَ إِلَيْهِ ،
وَكَانَتْ هِيَ الَّتِى تُصَيِّرُهُ وَتَشُدُّ عِزِّمَتَهُ . وَهِيَ الَّتِى كَانَتْ
تَجْفِفُ بِأَنَامِلِهَا الرِّقِيقَةَ النَّقِيَّةَ دَمُوعَ حَبِّهِ الْأَوَّلِ وَآلَامَهُ
الْأَوَّلَى . أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَحِيداً . آه .. مَا أَقْوَى الْإِنْسَانَ الَّذِى
يَعْتَقِدُ أَنَّ لَهُ صَدِيقاً وَنَصِيراً مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ ! أَنَّهُ كَانَ
يَحْمِلُهَا نَصِيبِهَا مِنَ التَّبِعَاتِ . إِذَا أَخْفَقَ فِي خَطْوَةٍ فَانْ
«السَّيِّدَةُ» هِيَ الَّتِى تَخَلَّتْ عَنْهُ ، وَلَعَلَّهَا أَرَادَتْ هَذَا
الْإِخْفَاقَ لِحُكْمَةِ لَا يَعْلَمُهَا هُوَ . وَإِذَا وَضَعَ أَمَلَهُ فِي شَيْءٍ
أَتَجَّهُ إِلَيْهَا ضَارِعاً أَنْ تَقِفَ إِلَى جَانِبِهِ وَتَضُمَّ هِمْسَهَا إِلَى
هِمْسِهِ وَصَوْتِهَا إِلَى صَوْتِهِ فِي رَجَاءِ «اللَّهِ» . إِنْ هَذَا
الْإِحْسَاسُ جَمِيلٌ ، وَهَذَا الْإِعْتِقَادُ مَرِيحٌ . نَعَمْ : لَوْ شِعِرَ

محسن لحظة أنه في وحدة مطلقة . وأن السماء ليس لها وجود ؛ وأنها جرداء جدياً غير عامرة بكائنات عليا .
تتصل حياته بحياتها . وأنه قد دخل بينه وبين هذه الأرض وحدها الى الأبد . لما عرف كيف يستطيع تحمل الحياة يوماً واحداً !

عندئذ لمعت في رأس الفتي كسنا البرق صورة من حياته في الغرب . وللمرة الأولى تنبه الى أمر مخيف : انه لم يذكر « السيدة » في حرارة الا الآن . بعد حديث « ايفان » . لقد مرت الايام تلوا الايام وهو يطالع أفكاراً مختلفة من الأغر يق الى فولتير ، ويشاهد وقائع مضطربة . من أزمات القرن الماضي الى انقلابات ما بعد الحرب . انها لمحي تعصف بكل رأس . وان رأسه قد أصبح كبقية ما حوله من رؤوس ؛ فقاعة بين فقاقع تملؤها الأفكار والحوادث . وتتدافع في شبه اناء من خمر مغلي . ليس في حياته اليوم اذن مكان تهبط فيه « السيدة »

بردائها الأبيض ! وان روحه قد غار كما يغور النجم
تحت شمس رأسه المحترق .

آه .. انه قد نسي حاميته التي في السماء ! لو انه
أحس يدها على كتفه ... لما تعثر في خطاه أمام صورة
(سوزى) .

الفصل الحادى عشر

فتح محسن عينيه فى الصباح ، على شبه صوت
ملائكى ينادى اسمه . أترأه صوتاً آتياً من السماء ؟
ولكن النداء تكرر واضحاً عذباً . فوثب الفتى من
فراشه ، وأصغى ، ثم ابتسم : انه آت من النافذة السفلى .
عجباً ! انها سوزى تقول فى نعمة موسيقية :

— محسن ! محسن !

فأسرع الفتى الى النافذة كالمجنون :

— أتنادينى ؟

فرفعت الفتاة أهدابها الجميلة فى شىء من الدهشة .

ورأى الفتى يدها على قفص البيغاء . تقدم اليه حب

(القرطم) ، فأدرك كل شىء . فتخاذل وارتبك :

— معذرة . لقد نسيت انى أشارك مع بيغائك

فى عين الاسم

ورآها تبتم . ورأى جالها فى ذلك الصبح الباكر
أنضر من زهر (النريس) فى أصص ناقنتها .
فتشجع وقال :

- نعم ، انى أشترك مع هذا البيغاء فى الاسم ،
ولكنى لا أشترك معه فى الحظ . ان الفرق بيننا عظيم .
انه هو الذى يحظى بعنايتك ، فتنادينه ، وتناجينه ، هذا
الأحمق الذى لا يشعر بمقدار ما يناله من سعادة ! آه ..
لأولئك الاشتراكيين الذين يطلبون المساواة بين الناس
فى الحظ والنصيب ، وأنا لا أستطيع أن أطمع فى مساواتى
فى الحظ والنصيب بهذا البيغاء !

فضحكت الفتاة وقالت :

- أترأه مطعماً عسيراً ؟!

- أن أكون مثل هذا البيغاء ؟ لست أطلب شيئاً

الا أن أكون مثله بالضبط !

- ولكنك لست فى قفص .

— آه يا سيدتى ! انى فى قفص ، لا يراه كل
الناس !..

فنظرت اليه الفتاة ملياً ثم قالت باسمه :
— اذا كنت حقيقة كذلك . فأنت تستحق اذن
شيئاً من ذلك العطف الذى تمنحه الطيور السجينة فى
الأقفاص !..

فأسرع الفتى يقول فى تضرع :
— ثقى انى أشد طيور الأرض استحقاقاً لعطفك !
فسأله الفتاة :

— وما نوع العطف الذى تريده منى ؟ انى بالطبع
لا أستطيع أن أقدم اليك قليلاً من (القرطم) !
— انك تستطيعين أن تتناولى معى قليلاً من
(القرطم) هذا المساء فى مطعم . . . فى أى مطعم
يرووك . . .

فضحكت الفتاة ضحكة طويلة رقيقة :

- يالك من مداعب ماهر !
- أنا؟ آه ياسيدتى . لأول مرة أسمع من يصفى
بالمهارة فى شىء . شكراً لك !

لم يأت العصر . حتى كان محسن فى منزل أندريه .
يقيم الدنيا ويقعدها ، وقد أجلسه صديقه الفرنسى أمام
المرأة . وجعل ينظم له شعره الأشعث ، بينما أخذت
« جرمين » تنظف معطفه الأسود بالبترين وتزيل عنه
البقع . ورأى الفتى اهتمام زميليه ، فصاح بحمسهما :

- نعم . إصنعا منى إنسانا خليقاً بقاء امرأة جميلة !

فابتسمت جرمين وقالت !

- عرفت اسمها أخيراً ؟

- سوزى !

لفظها الفتى همساً كمن يرتل صلاة ، ولكن جرمين
سمعتة فقالت باسمه :

— اسم جميل ، والموعد أين ومتى ؟

— هذا المساء في محطة المترو !

— وبعد ؟

— سنتناول العشاء ...

— في أي مطعم ؟

— آه ... صدقت ... لست أدري ... ياللمصيبة !

نسيت التحري عن المطعم الموافق ... أسرعاً ! أسرع

يا أندريه وأخبرني عن رأيك في هذا الموضوع الخطير !

فصاح أندريه يائساً :

— لا تهتز هكذا . لقد فسد ترتيب شعرك ،

وتبعثرت خصلاتاه من جديد ، آه لقد ضاع تعبي

فيك سدى !

— ولكن موضوع المطعم ذو أهمية كبرى ...

— لا شيء أتفق من موضوع المطعم . هذا الذي

تصفه بالخطورة والأهمية الكبرى ! .. كل شيء تافه

تتخيله أنت دائماً هائلا ، لو كنت مكانك لأخذتها بكل
بساطة إلى مطعم « بوكاردي » !
فضحكت جرمين ضحكة طويلة ، فنظر إليها زوجها
نظرة العجب :

— لماذا تضحكين !

— إنه المطعم الذي ذهبت بي إليه يوم لقائنا الأول ،
ومع ذلك ... لم أشأ يومئذ أن تطلب من أجلي « أوردفر
فارييه » !

— أما زلت تذكرين تلك الحماقات !

فصاح محسن وهو يلتفت إليهما :

— آه أحسنهما صنعا بهذه الحماقات ! سأطلب لها

أنا هذا « الأوردفر فارييه » !

فانهزه أندريه :

— قلت لك : لا تهتز ! ولا تتحرك حتى أفرغ

وأطمئن على منظرِكَ !

فالتفت الفتى إلى المرأة وهو يقول في قلق :
— وهل تعتقد أن الحال سيدعو إلى الاطمئنان؟!
— إن الأمر على كل حال لا ينبغي أن يدعو إلى
اليأس . . :

فسكت محسن على مضض ... ثم عاد يقول سريعا
كهن تذكر شيئا هاما :

— اسمع يا أندريه ! في جيب معطفي قازورة
« هوييجان » من الصنف الغالى ، اشتريتها عملا
بنصائحك الغالية . ألا ترى أن أنعطر منها قبيل اللقاء ،
إنها كفيلة أن ...

— المسألة ليست مسألة « هوييجان » !

— تريد أن تقول ...

فالتفتي أندريه نظرة أخيرة على شعر محسن ووجهه ،
ثم صاح في نبرة مرحة :

— أريد أن أقول إن لك الآن وجه عاشق

يستطيع أن يذهب تَوّاً إلى مواعده !

فنهض محسن وأتجه إلى جرمين الباسمة :

-- أهو يخدعنى ؟

فقلت جرمين للفور وهى تقدم إليه المطف :

-- إنه يقول الحقيقة . البس معطفك ، وانطلق

مطمئناً . أيها الفتى السعيد !

فارتدى محسن معطفه ، ووقف أمام المرأة يتأمل

هيئته طويلاً :

-- المسألة مسألة ذوق ! ما دام هذا المنظر يصلح

فى رأيك للذهاب إلى المواعيد . فليس من الكياسة أن

أطعن فى ذوقك ! إلى الملتقى !

قالها وهو يتحرك إلى الباب رافعاً قبعته السوداء

فى الهواء . وشيعة أندريه وزوجته إلى السلم وهما يقولان

باسمين :

-- أشجع !

انتظر محسن الفتاة إلى أن جاءت . وذهبا إلى
« بوكاردي » فتناولوا العشاء . ثم خرجا إلى « الجران
بولفار » فشربا القهوة في أحد المشارب . ودقت الساعة
العاشرة ، فهضت سوزى طالبة العودة إلى مسكنها .
عند ذلك فقط أفاق الفتى وثاب إلى رشده وأحس
فجأة الجوع . فهو لم يأكل شيئا في المطعم . هو الذي
كان قد دخله جائعا . خرج منه جائعا دون أن يشعر .
وهل كان في مقدوره وهو الى جانبها أن يفكر في
أكل أو شرب . ان المعدة لتنام عند ما تستيقظ الروح
انه لا يذكر شيئا من أمره . لكنه يذكر كل شيء ،
من أمرها هي ، يذكر حركة يديها الرشيقتين وهي
تتناول « الأوردوفر فاربيه » . ويذكر جمال فها وهو
يشرب (البورجونى) ، ويسمع صدى ضحكاتها الرقيقة
الخافتة عندما كانت تراه يذهل عن الطعام بالرؤيا ،

أو الكلام الطويل في أشياء لم يعد يذكر ما هي ...
ومرت الساعات كأنها اختلاجة من أهدابها . وها هو
ذا قد حان وقت الافتراق عنها ! لا ، هذا مستحيل ،
أبهذه السرعة قد وصلا الى باب النزول ؟ لماذا يقسو
القدر على الناس هذه القسوة ؟ ان الساعة لتطول كأنها
الدهر عندما تقع في كرب أو بلاء ، وأنها لتقصر كأنها
ابتسامة عابرة عندما يجتاز النعيم ! ولم يرع الفتي الا
يدها تمتد اليه مودعة قبل أن تدخل النزول ...

— لا . ان الوقت ما زال متسعا ، ونحن مازلنا في

أول الليل ، وعندى كلام لم أفض بعد به اليك ...

قالها محسن وهو محتفظ بيده سوزى في يده في

حرص وخوف ... فقالت الفتاة :

— إني لا استطيع طبعاً ان استقبلك في حجرتي

الساعة ولا أن أصعد إلى حجرتك . فافض اذن بما تريد

ها هنا الآن . أو ... فلنسر قليلا في هذا الشارع ...

ومشياً جنباً إلى جنب في ذلك الطريق الطويل
ذى الأشجار الكبيرة ، إلى أن بلغا حدود « پورت دى
ليلاس » ، وعادا من عين الطريق إلى أن اقتربا من
ميدان (جامبتا) . وفاجأتهما الأنوار فرجعا أدراجها
يحتمیان في ظلام الأشجار . والفى لا يندس . وهى
صامتة صمت من ينتظر منه الأفضاء بشىء وكأنما
عيل صبرها . فقالت في صوت خافت رقيق :

— ماذا كنت تريد أن تقول لى ؟

— كل شىء .

— إنى مصغية إليك .

فأراد محسن ان يتكلم ، لكن الألفاظ هربت من
رأسه كما تهرب العصافير من الأقفاص . إن لديه إحساسا
عاريا . ولا ينبغي أن يظهره عاريا أمام سيدة ! لا بد له
من ثوب أنيق . فالمرأة يسرها دائما الثوب الأنيق ،
وإن كان على جسم نحيل من عاطفة نحيلة . إن هذه الفتاة

لا شك تدرك ما عنده ، وهي لا تكتفى بذلك ، وهي
إنما تدمى قدميها سيراً في هذا الليل لتسمع الفاظاً يلذها
سماعها في ذاتها ... فماذا تراها تفعل بمشاعر قوية في
أطهار بالية . وخشى بحسن العاقبة ، وتغلب عليه الهم
فقال كالهامس :

— لا .. لا استطيع الآن ...

فقلت هي ايضاً كالهامسة :

— لماذا ؟

— غداً . إذا شئت ...

— بل الآن .

فتردد الفتى لحظة . ثم تمالك وانطلق انطلاق
الهارب الخائف . الذي يريد ان يقنع عقله بالشجاعة
والثبات . قائلاً كالمخاطب لنفسه :

— لست جديراً ان اقول لك ما اريد الآن ،

دعيني أبعث إليك غداً برسول عنى يحسن الكلام !

— من هو ؟

— الشاعر الأغرقي القديم (انا كريون) .

سأحضره معي عصر الغد عند محطة المترو ، وسيفضي

هو اليك بكل شيء !

الفصل الثاني عشر

كانت كل حياة محسن في الأربع والعشرين ساعة
التالية : ترقب الموعد . وإعداد نفسه وترويض لسانه
وضبط أعصابه لمواجهة الموقف وجاء العصر
فارتدى ثيابه في عناية وهم بالخروج : واكن الباب
طرق عليه . وظهرت خادم المنزل تقدم إليه رسالة وردت
« بالبريد السريع » . ففض القتي غلافها بيد ترنجف ،
وقرأ في لمحة واحدة :

صديق . . .

أرجو منك أن لا تنتظرنى هذا المساء . فى المكان
المعروف ، فانى سأبقى فى العمل إلى ساعة متأخرة لم
تكن فى الحساب ، إذا كنت مع ذلك فى مسكنك ،
فانى أمر بك عند منتصف العاشرة . لأقول لك
« بونسوار »

سوزى

عاد الدم يجري إلى وجهه الفتي ، وهدأ تنفسه ،
وانتظمت دقات قلبه . ثم خلع سترته وجلس إلى مكتبه
يفكر باسماء ، ويتلو خطابها على مهل . ووقف عند كلمة
« صديق » ثم عند قولها « فاني أمر بك » . فأحس
طرف أجنحة السعادة تمر به ، ورفع عينيه إلى ماحوله .
إنها ستأتي هنا بعد قليل . ما كل هذه الكتب
المكدسة في غير ترتيب . ينبغي أن يقر في الحال النظام
محل الفوضى . وقام من فورهِ إلى حجرتهِ . يهيئها
للاستقبال العظيم .

وجاء الليل وانتشر الظلام في سماء شبه صافية توذن
بانتهاء الشتاء . ووقف محسن قرب النافذة ينظر إلى
النجوم المتألقة بأشعتها الزرقاء . وأذنه مرهفة إلى الباب ،
في قلق ونفاد صبر ، وخيل إليه مرات أنه يسمع نقرًا
خفيفًا على بابه . فكان يسرع إلى فتحه فلا يجد أحدًا .

لقد اختلط في رأسه الوهم بالحقيقة من طول التأمل
والانتظار . وسمع أخيراً طرقة هزت قلبه قبل أن تبلغ
رأسه . فأيقن أنها هي .. فأصلح من شأنه على عجل .
وفتح الباب ... نعم . إنها هي ... هذه المرة ... بقيعتها
ومعطفها وبقيّة ثياب الخروج . ودخلت مبتسمة
كأنها زنبقة :

— لقد جئت توك كما ترى . قبل أن أمر بحجرتي
آه ... أهذه حجرتك ؟ ... إنها جميلة ...

— الآن فقط . ارى انا انها جميلة .

— ما كل هذه الكتب ؟ إنك تقرأ كثيراً . أتلد

لك بهذا المقدار الحياة في ...

— وأنت ؟

— إنى أفضل الحياة في ... الحياة .

— أنت أيضاً !

— لماذا تنظر إلى هكذا ؟

— اصبت . ارى الآن انى على خطأ ، ما الذى
يعينى من امر حياتك انت . ما انت إلا (حلم) يحيا
فيه ... الآخرون ...

— ومن هم الآخرون ؟

قالتها فى ابتسامة ذات معنى ، وأناملها تعبت
بصفحات كتاب فوق المكتب . وأرخى القمى بصره ،
ولم يجرؤ على المضى فى الكلام ... ونظرت إليه لحظة
ثم قالت فى صوت خافت رقيق :

— انى مصغية اليك .

فتذكر محسن البارحة ، وفطن الى مرادها . فرفع
رأسه ، وقال :

— اسمحين لى ان اقدم اليك من يستطيع ان
يتكلم باسمى ...

— ذاك الشاعر الأغر يقى الذى قلت لى عنه ...

ما اسمه ؟

- «أنا كريون» .

- نعم ، نعم ، أين هو ؟

فأشار بأصبعه إلى الكتاب الذي تعيبت به :

- إنه بين يديك .

فضحكت ضحكة ساحرة ورفعت الكتاب تنظر

فيه . وبأدب محسن فدلتها على إحدى صفحاته وقال لها :

- إقرئي هذا !

فقرأت :

«إني أريد .

أريد أن أحب .

ولقد زين لي «الحب» أن

أحب . . .

فأيتت من جهلي أن أصغى

إليه . . .

فقبض من فوره على قوس

من ذهب :

ودعاني إلى القتال .

فلبست له الحديد .

وأمسكت بالرمح والدرع ،

ونهضت كأني « أشيل »

أنازل « الحب » .

فسدد إلى سهامها ،

حدت عنها فطاشت .

ونفذت سهامه .

فتقدم إلى يتقد غضباً ،

وهجم على فاخترق جسمي ونفذ

إلى قلبي .

فانهزمت .

يا لها من حماقة أن أتقي

بدروع !

أى سلاح خارجى ينتصر
على « الحب » إذا كانت المعركة
قائمة داخل نفسى !

وفرغت الفتاة من القراءة ، ولكن بصرها بقى
جامداً على السطور . وكان الفتى قد دنا منها يقرأ معها
من صفحة واحدة . فأحس شعرها المَعَطَّر قد انتشرت
خصلاته الذهبية على وجهه كما تنتشر أشعة القمر على
الكائنات ، ولم يذكر الفتى شيئاً عندئذ ولم يفطن إلا إلى
وجه سوزى الناعم الحار قد لاصق وجهه . وكأنها تقبله ،
نعم ، إنها بين ذراعيه تقبله . هذا لا ريب فيه الآن .
وهى حقيقة واقعة الآن لا وهم فيها ولا غموض ، ولم يدر
الفتى كيف حدث ذلك ، ولا ما يصنع بعد ذلك ...

آه لأولئك الخياليين عندما يعطون فجأة :
« الحقيقة » ! نعم . فجأة . أى قبل أن يترك لهم زمن

يُسبغون فيه على تلك «الحقيقة» أردية الخيال الموشاة !
إنهم يتلقون جسماً غريباً ومادة عارية لا يعرفون ماذا
يراد بها . إن «الحقيقة» عملة لا تجوز في مملكة
«الأحلام» .

لم يتم محسن تلك الليلة . فقد كان وقع ما حدث
ذا دوى في نفسه . وجاء الصباح فأسرع إلى صديقه
أندريه يقص عليه كل شيء .

وابتسم الفرنسي لرواية الفتى وقال له :

— أرايت انها فتاة ككل الفتيات ، وعاملة
كآلاف العاملات ! تلك التي أسكنتها قصرًا من قصور
ألف ليلة وليلة ، وجعلتها تنظر من عليائها إلى مواكب
الناس المتدفقة تحت شباكها . آه أيها الصديق ،
اقتنعت الآن أن الأمر أقل خطراً مما كنت تتصور
وأن وقوع امرأة بين ذراعيك مسألة بسيطة لا تحتاج

إلى كل هذا الوقت ولا إلى كل هذه الخيالات
والتأملات !

فأحس الفتى إحساس من بهوى إلى الأرض .
وكان قيم الأشياء في نظرة قد تضاءلت . وكان الحياة
نفسها قد تجردت من غطائها . فبدت كتمثال مصبوب
من السخف . وشعر محسن بفراغ في مادة نفسه .
لا يدري بعد اليوم بماذا يملؤه ...

وترك الفتى صاحبه وانصرف مطرقاً . دون ان
ينبس بحرف ...

الفصل الثالث عشر

... ولكن للأرض لذاتها وآلامها . ولقد هبط
(آدم) الأرض فغمره نعيم وجحيم من نوع آخر
ومادة أخرى وهكذا كان يستيقظ محسن بعدئذ كل
صباح على قبّلات ملتهبة ، فيفتح عينيه . فاذا موجة من
ذهب ذلك الشعر الجميل قد غطت وجهه . . . وصوت
عذب يقول له :

— أوركوار !

ثم خطى قدمين صغيرتين تخطر على خشب الحجر
وتتجه الى الباب في شبه حركة راقصة ، ثم صوت الباب
يفتح ويفلق . ثم لا شيء . انها ذاهبة الى عملها . . .
لم يكن لمحسن بعد ذلك من عمل إلا الاستمرار
في النوم الى الضحى ، فلم يعد به حاجة الى التذكير . ولم
يعد صوت غنائها هو الذى يوقظه . الى ان يكبل من

النوم فينهض في تراخ ويرتدى ثيابه على مهل ، ثم يخرج
الى مطعم (الأوديون) يجوار المسرح ينتظرها فيه
لتناول الغداء ، ثم يبقى معها حتى موعد فتح شباك
التذاكر في منتصف الثالثة . فيتركها ليعود إليها ساعة
العشاء في ذلك المطعم . ثم يذهبان وقد فرغت من عملها
إلى سينما الحى . فيجلسان متلاصقين ، يتبادلان القبلات
في الظلام ، كما يفعل من يجوارهم من عمال وعاملات .
وتذكر محسن ذات مرة ملاحظته الأولى يوم رأى فتى
فرنسياً يعانق فتاة في الطريق . لقد حسب يومئذ ان
في ذلك امتهاناً لقداسة الحب . اتراه يقول ذلك الساعة ؟
لا . ما الذى تغير ؟ لاشىء . إنه يجب دائماً ، ولكن
طعم (الحب) هو الذى تغير . التفاحة هى التفاحة ،
ولكنها تفاحة أرض جديدة ! تفاحة (الأرض) ... حلوة
لكن داخلها الدود ! ولم يكن محسن يطيق إبطاء
سوزى خمس دقائق عن مواعدها ، ولم يكن يحتمل

رؤيتها تبتسم لأحد معارفها وهي تحنى رأسها بالتحية .
ولم يعد يرى صورتها في أحلامه ممتزجة بأنغام
(الأترمتزو) و (رقصة الفراندول) . ولكنه يراها
في نومه تعانق رئيسها (هنرى) الذى عرف منها بعض
أخباره . أو يراها تقبل شابا زنجيا تلك القبلات الملتهبة .
فينهض منزجاً مضطرباً يود لو يمزق جسدها بأسنانه .

وجلس محسن ينتظرها ذات مساء فى ذلك المطعم
الذى يؤمّه ممثلوا الأوديون وفنانوه . ومضت ساعة
مجيئها ولم تظهر بالباب ، فاحتفى الالبسام من وجه الفتى .
وذهبت رغبته فى الطعام . وود لو ينهض ويخرج
ويركض هارباً حتى تأتى ولا تجده . وخامرته الشكوك .
ولم يستطع ان يقبل فى امرها عنذراً . وحكم عليها فى
نفسه حكماً قاسياً . وتمنى لو يحطم شيئاً . حقيبة يدها .
أو طبقاً من هذه الأطباق . ولكن الباب فتح فى

تلك اللحظة وبدت سوزى مسرعة إليه ، وكأنها قرأت
في وجهه كل ما في نفسه فبادرت تقول :

— أبطأت عليك قليلا . أردت أن أحصل على

تذكرة دعوة للحفلة الأولى من الرواية الجديدة . . .
لأقدمها إليك !.

وأخرجت من حقيبة اليد رُقعة من الكرتون

أعطتها إياه . فأخذها ... ولكن الهدوء لم يستقر في

نفسه . فقال لها في صوت حار :

— اني أحبك الى حد مخيف ... الى حد الرغبة في

ان أنهال عليك ضربا .

فقال مبتسمة وهي تفحص قائمة الطعام بعينها :

— هذا مخيف حقا . ماذا طلبت من الأكل ؟

— اني احبك ، احبك كثيراً .

قالها كالمخاطب نفسه وهو يفحص بعينه خصلات

شعرها المتهدل تحت القبعة . وجاء خادم المحل يتلقى

الأمر . فطلبت الفتاة ما اختارت من بين الألوان .
والتفتت الى الفتى السام . كما التفتت الى الخادم ،
وصاحت به :

— عجباً ! ماذا تريد ان تأكل ؟

فرفع الفتى بصره كمن ثاب الى رشده . وتناول
بطاقة الطعام وهو يقول :

— ماذا آكل ؟ لست ادري ؟ اشيرى على انت ؟

فانى لا استطيع ان أعصى لك امرأ !

فطلبت له مثل ما طلبت لنفسها . وانصرف الخادم ،
والتفتت هى اليه :

— ماذا بك ؟

— لا شئ . ما أشد الحرارة داخل هذا المكان !

انى أحس العطش ...

وسكب قليلا من الماء فى كؤبه ، وجرع منه

جرعتين . وقالت سوزى وهى تبحث عن كوبها الذى
لم يوضع بعد على المائدة :

- إنى أيضاً أحس العطش ...

وتناولت كوب محسن وشربت من الموضع الذى
شرب منه الفتى ، وهى تنظر إليه باسمه . ورأى الفتى
ذلك منها . فقال فى صوت خافت نارى متقطع كأنه
حمم متطاير :

- بى .. رغبة هائلة .. فى ان .. اقبلك الآن !

فضحكت ضحكة رقيقة كلها دل . ونظر محسن

خلسة إلى من حوله فى المحل . ثم مضى يقول :

- لا أستطيع . فلا أقنع الآن مرغماً بالشرب من

الموضع الذى مس شفتيك ... كما فعلت معى .

ورفع الكوب إلى شفتيه ...

الفصل الرابع عشر

عاش محسن حياة « الواقع » ، يأكل ويشرب
وينام في « الحقيقة » . ولم يفتن إلى كتبه المغلقة منذ
تلك الليلة . ولم يرفق أكداً غير بضعة دبايس
شعر للسيدات ، وعلبة « بودرة » قد تناثر منها مسحوقها
الخمري النحاسي في لون الأجسام الرخامية التي عانقتها
الشمس على شاطئ البحر . ذلك اللون المحبوب من
الباريسيات في ذلك الوقت . نعم ، لم يعد البياض
الناصع لون السحب هو المثل الأعلى ! إنما هي الحمرة
الحارة لون الصّصال المحترق !

وتلاقى محسن وسوزى على مائدة المطعم هذا المساء
مبكرين ، فالليلة الحفلة الأولى للرواية الجديدة ، وقد
جاء للتمثيل فيها الممثل الشهير « دي فيرودي » .
وكان الفتى باسم الثغر . منشرح الصدر ، يلتهم

طبق « البفتيك » في نشاط ظاهر ، ولحظته الفتاة قليلا
وابتسمت قائلة :

— أرى أن لك اليوم شهية للطعام !

— إن « البفتيك » لذيذ . ولكنى مع ذلك ...

مسرور لسبب آخر .

— ماهو ؟

— إنى مدعو إلى الحفلة الأولى في ثانی مسرح

بياريس ! إنها المرة الأولى التي يقع لى فيها ذلك ...

وهذا بفضلك .. إنى نخور بك !

— هذا شىء لا يدعو إلى الفخر !..

— لا .. إنك ..

— لا تقل شيئاً ... كل بغير أن تتكلم ، يا بيغائى

الكبير .!

— آه ! بيغاؤك الكبير ، كم أعجب ذلك الآخر

الصغير ! إنه فى قفصه فوق نافذتك أكثر حرية منى

بين يديك !

— قلت لك لا تتكلم حتى تفرغ من طبقك . إني
أعلم أن لاشي . يذهب شهيتك دائماً مثل الكلام على
المائدة ! استمع أنت ، وأنا أتكلم ...
— نعم ، تكلمي أنت ...

وعكف محسن على طعامه ، وأرادت سوزي أن
تفتح فيها بالحديث ولكن الباب فتح . وظهر شيخان جليان
ابتسما للفتاة في تحية من رأسيهما ، وجاسا إلى إحدى
الموائد ، وقد هرع إليهما مدير المحل وغلامانه ، ورأت
الفتاة علامة الاستفهام على وجه الفتى فأسرعت تقول له
هامسة :

— أتدرى من هذا الشيخ القصير ؟

— من هو ؟

— مسيو « دي فيرودي » نفسه .

فرفع محسن رأسه ينظر إليه في عجب وإعجاب

ثم قال هامساً :

— هذا « دى فيرودى » !

— إنه مثال الوداعة وطيب الخلق .

— ومن هذا الشيخ الضخم الذى معه ؟

— عجباً ، ألم تره من قبل ؟ هذا مسيو « سيلفان » !

— « سيلفان » العظيم !

ونظرت سوزى إلى طبق محسن ، ثم قالت فى

الحال بلهجة الأمر :

— والآن ، الكلام ممنوع يا بيبغائى العزيز !

— نعم .. تكلمى أنت ...

وعاد الفتى إلى الأكل ، وجعلت سوزى تتحدث !

— أتعرف أن زوجة مسيو « سيلفان » تجيد طهى

« البويابيس » ؟ وأن مسيو « هريو » وزير المعارف

وهو الصديق الحميم للممثل « سيلفان » لا يستمرى أكل

(البويابيس) إلا من صنع (مدام) سيلفان العجوز !

إسمع هذا : فى الشهر الماضى ...

ولم تتم . فقد فتح الباب ، وظهر شاب فرنسي
جميل الطلعة . ما كاد يقع بصره علي سوزي إلى جانب
محسن حتى تغير وجهه ، وما كادت تراه الفتاة علي هذه
الحال حتى تغير وجهها وانقلب كل شيء فيها رأسا علي
عقب ، وشعر محسن في تلك اللحظة أن مصيبة نزلت
به . لا يدري بعد ماهي . وجلس ذلك الشاب إلى خوان
قريب . ووجهه في وجه الفتاة . . . لكنه أطرق
وجعل كأنه لا ينظر إليها ، ووضع عينيه في (قائمة)
الطعام ...

وأطرقت سوزي كذلك . وكانت قد فرغت من
الأكل فلم تدر ماذا تصنع . وقلق محسن فسألها :
- ماذا دهاك ؟

فلم تجبه . ولم تلتفت إليه . وأومات إلى غلام المطعم
فاقترب منها فقالت له :

- مجلة (الأستراسيون) من فضلك !

فأسرع الخادم وأحضر إليها الصحيفة المصورة التي طلبتها . فتناولتها ونشرتها بين يديها وجعلت تتأمل صورها في صمت . كأنها غير حافلة بوجود محسن إلى جوارها . وأحس الفتى منها ذلك . فغلى الدم في رأسه وقال لها بصوت هامس يَقَطِّرُ مَرَارَةً :

— أهذا هو صاحبك (هنرى) ؟

فلم تجب . ففضى يقول :

— لماذا تسكتين الآن عن الحديث معي ؟

فلم تجب . فقال :

— أريد أن أعلم معنى اهتمامك الآن فجأة بهذه المجلة

وهذه الصور ؟ !

فلم تجب . فقال :

— تريد أن تفهميه في بساطة أنى إنسان لاخطر

له عندك ، وأنتك تتناولين معى العشاء عن غير رغبة أوسرور .

فلم تجب . فقال ذاهب الصبر :

— وبعد؟ ألا تقولين كلمة! لقد قضى الأمر إذن
ولم أعد بينائك العزيز؟ وأنت ما عدت تحرصين على
شهيتي للطعام أو الشراب . والاقبال على تحديثني كما
كنت الآن تفعلين؟

فلم تجب . ولم ترفع رأسها ومضت تقلب الصور
فقال في غضب مكتوم ساخر :

— ثقي أن خليلك قد اقتنع الآن كل الاقتناع أنك
تفضلين قتل الوقت بمطالعة المجلة على الحديث مع مثلي .
نعم ، لقد فهم الآن أني لا أساوي شيئاً في نظرك !
فلم تقل شيئاً . فقال :

— لعلك تريدن أن يفهم أكثر من ذلك . فيرى
أنى لست أكثر من معجب مفتون من أولئك المغفلين
الأجانب الذين ينفقون على الغايات ويتقبلون في رضا
إعراضهن وإهمالهن وازدراءهن :

فلم تجب ولم تتحرك ، فقال :

— إنك تحمليني من الإذلال ما لا أطيق ! نعم ،
ينبغي أن أقول لك إن ما تصنعين بي الآن اكثير .
وليس الذى يعنينى من الأمر هذا الحب الهائل الذى
ظهر فجأة الساعة فسحرك ، وجعل منك تمثالا من
الشمع . فانت حرة فى شئون عواطفك . ولا يدفعنى
إلى هذا الكلام ألم أو غيرة ، حقيقة أن حالى الآن
لا يدعو إلى الاغتياب والارتياح . ولكنى أنا أيضا حر
فى شئون عواطفى . ما أسألك عنه الساعة هو أن
تفكرى قليلا فى أمر موقفى . وأن تنقضى على الأقل
المظاهر . وأن تعاملينى فى شىء من البر والكرم ، وأن
لا تجعلينى ذليلا أمام حبيبك أو خليلك . إلا إذا كنت
تقصدين ذلك ، وكان هذا هو السبيل الذى ترتفعين به
فى نظره وتصلين به إلى عنايته وحسن التفاته . وبعد ؟
ألا تقولين شيئا ؟ أمصرة أنت على هذا الصمت المهين ؟

إذن .. ليس في وُسْمِي الان مع الأُسْف العميق إلا
أن ...

وأوماً إلى الخادم فجاء . ودفع إليه سريعاً قيمة
« الحساب » كله ، ثم نهض قائلاً :
— وداعاً ياسيدتي :

ومضى على عجل دون أن ينظر إليها ، وخرج من
المطعم خروج آدم من الجنة ...

الفصل الخامس عشر

قبع محسن في حجرته . مهيبض النفس ، جريح القلب . وجعل ينظر إلى كل شيء حوله كمن ينظر إلى شيء غريب . نعم . لقد فقد هذا المسكن معناه . وهذه النافذة . ما عادت تُشرف الآن على ذلك الهناء ... وإن صوت الغناء العذب المتصاعد من النافذة السفلى ليس الآن غير طعنة طويلة تنفذ إلى سويداء فؤاده . فهي إنما تعني دائماً للآخر . إنه ما زال يسمع في الصباح عين الأغنية من « كارمن » :

« الحب طفل بوهيمي

لا يعرف أبداً قانوناً »

هذا صحيح . وهو الآن يلقى جزء اللعب مع ذلك الطفل البوهيمي ! إنه لم يعد يسمع حتى صوت نداءها للبيغاء الصغير . إن إسم « محسن » قد اختفى من فمها .

على الاطلاق . وَخَطَرَ للفتى أن ينظر إلى قفص البيغاء
فوق نافذتها . فأطلَّ من نافذته فأخذه الروح . لم يجد
قفصاً ولا بيغاء . أين العصفور ؟ أين «محسن» الآخر ؟
لا يدري مصيره هو أيضاً ، لعلها قذفت به كذلك إلى
عَرْض الطريق ، وحزن الفتى لتلك الفكرة . . .

ومرت ساعات . ومرت أيام ، ومحسن يعيش في
ألمه . كما يعيش الجريح في دمه . وخطرت له خواطر
وطافت به هواجس . وانتهى من تأملاته الطويلة إلى
عزم : أن يراها ويحادثها مرة أخيرة . آه للمحبين
المدحورين ! كم يعلقون الامال على ما يسمونه «المحادثة
الأخيرة» ! إنهم لا يريدون أن يفهموا أن الشرح والمنطق
والتفسير والايضاح وكل وسائل الفكر والعقل أشياء
لا تفيد في مسائل القلب . وأن التعميم والجحيم إنما تفتح
أبوابهما وتُوصد على شبه ألقاظ سحرية لا معنى لها :

« افتح يا سمس . اغلق يا سمس » !

وسمع الفتى ذات عصر صوت غنائها . وعلم أنها في
حجرتها ، فتجالد وذهب إلى بابها وطرق طرقة خفيفة
خجالة . ففتحت . وما إن رآته حتى عادت فأغلقت في
وجهه الباب في هدوء ، بغير أن تلفظ كلمة . . .

فرجع الفتى أدراجه أحمر الوجه من أثر تلك الصفعة .
وجلس إلى مكتبته وأخفى رأسه بين كفيه . . .

ومرت عليه ساعات أخرى . وفكر مرة أخرى :
لو أنه استطاع فقط أن يكلمها ويفهمها . . .

وحاول في اليوم التالي أن يعيد الكرة . فطرق
بابها مرة ومرة ؟ فلم تفتح له . وتوسل إليها أخيراً من
خلف الباب أن تصغي إليه خمس دقائق . يخرج بعدها
ولا يعود . بل إنه يعدها بترك المنزل كله والمضي بامتعة
إلى حيث لا تعلم . لكنه لم يتلق جواباً . فهي سماء
صماء لا يصل إليها دعاء . وهو عبيد طرح على أرض

الشقاء قد ارتكب خطيئة لا عُفْران لها ولا يدري
ما هي !؟

وحدثته نفسه أحياناً بالثورة . وود لو تنقلب كل
ذرة من ذرات حبه إلى قنابل تتساقط محطمة ذلك الشيء
الجميل الذي كان يسميه « سوزي » ولكن رباعية من
رباعيات الخيام وقعت فجأة تحت بصره وهو يقرب
الكتاب بين يديه لاهياً حالماً :

« إذا أردت أن تسلك

طريق السلام الدائم

فابتسم للقدر اذا بطش بك

ولا تبطش بأحد ! »

نعم ، فليبسم ، على الرغم من كل شيء . حسبته أن
قد ظفر بلحظة من ذلك النعيم الذي كان يجمله . نعم ،
ان تلك المرأة استطاعت أن تكشف له عن جانب
من جوانب الجنة المجهولة في كيانه . . . فليكن من

أمرها ما يكون . فهو الآن يعلم بفضلها ما لم يعلم... «جنة الأرض» هي التي أعطته مفاتيحها ، وأذاقته رحيقها . ووضعت شفقتها إلى جوار شفتيه على حافة ذلك الكوب البلورى من الكوثر الأرضى . . .

لكنها قد طردته ؟ فامصيره ؟ أيعود إلى السماء ؟!
وترك مجلسه . واقترب من نافذته . وأطل منها على نافذتها السفلى فوجدها موصدة . ولكن الضوء ظاهر من زجاجها . فهى فى حجرتها ذلك المساء . لكن كيف السبيل إليها ؟ إن بابها المغلق فى وجهه لا تحترقه صلاة ولا يفتحه بخور . إنها الآن فى حجرتها كاله فى سماءه ، قد احتجب بالسحب واعتصم بالشهب . فلا يدرى أحد كيف يدنو منه . وتأمل محسن السماء طويلا من نافذة حجرته العالية وقال متنهداً :

« آه أيتها السماء السابعة ،

إنى أراك وأحادثك ،

من هذا الطابق الخامس .
أما فتى التي كانت دانية مني .
فهي نائية . نائية الآن عني .
آه لو أنها كانت فقط
في السماء السابعة ؟
لكنها ... في الطابق الرابع !!»

الفصل السادس عشر

سيدتي . . .

لم يكن بد من أن أكتب إليك هذا الخطاب .
إطمئني . لن أطلب فيه شيئاً . ولن أرجو منه شيئاً . إنني
لست أخدع نفسي . ولست أجهل حقيقة الأمر . إنني
منذ دخل المطعم مسيو « هنري » ولحظت كيف تغير
وجهك ، فهمت في الحال أن ساعاتي عنده أمست
معدودة . ولعل كلماتي التي وجهتها إليك ذلك المساء لم
تكن إلا صيحات التشبث بالحياة . فإن كنت قد جرت
في القول ، وانطلقت بكلام أغضبك ، فإني أطمع دائماً
في أنك تصفحين . كما صفحت ولا ريب الملكة الجميلة
« سميراميس » عن زلات لسان « أسيرها » يوم دعتة
إلى ليلة من ليالي النعيم . مهّدت فيها الفرش وأقيمت
الموائد . وقدمت (أطباق البفتيك) . وتلاقت الشفاه

على الأكواب ، وفاح عطر الـ « هويجان » من
أعطاف الثياب ، وانتثرت خصلات الذهب على الوجوه
إلى أن لاح الصباح . فتغير وجه الملكة الجميل . ووضع
الأسير في الأغلال ، ومشى به إلى الموت ، وهو ذاهل
ما زالت في رأسه بقية من نشوة الليل .

إن الذي كان يلطف من غير شك وقع الأمر على
ذلك الأسير أنه كان يعلم أن الملكة تلهو ، وأن الجلاد
سيستقبله على باب مخدعها في الصباح . فهو لم يعتد . ولم
يغيب عن عينه السكرى سيف المنية يبرق من خلف
الكووس .

واسكن ملكات العصر الحديث يفعلن بأسراهن
غير ذلك . كل شيء عندهن مستتر مقنع ، (فهى) تضع
على وجهها ذلك القناع الحريري الأسود الذي يلبس في
(المسخر) ، ويحج خلفها (أسيرها) وهو مسحور بجبال
عينيهما الفاروزيتين ، تهران في السواد كأنهما نجمان بازغان

في صدر الليل ! وتسير به إلى خَلوة يقرآن فيها صفحات
الحب منفردين ، ويلتصق فيهما الوجه الحار على الوجه المورّد
ثم تجذبه إلى ضجيج الناس والطُرقات ، وقد خيل إليه في
هذا الحلم أنهما في (فينيسيا) أيام (السكر نفال) وكان
كل شيء حوله راقص . وكان على رأسيهما تلك التيجان
من (الكرتون) الفضي الذهبي . . وكان جبال الورق
(السر بنتان) الخضراء الحمراء تشد جسميهما . أحدهما إلى
الأخر في رباط ، خيل إلى الأسير وهو غارق في أحلامه
أنه وثيق لرب ينقطع . ولبنا هكذا مرتبطين بتلك
(الجبال) يذهبان بها في كل مكان : في المطاعم حيث
(البورجونى) المعتق ، وفي السينما حيث القبلات في
الظلام ! عجبا ! أكل هذا لم يكن حبا ؟! من قال ذلك ؟
ومن أذن للأسير في أن يشك ؟ حقيقة أنه لم يزل كل ما خفي
من وجه (الجميلة) فهي لم تخلع بعد قناعها . لكن
ماذا يهم ؟ انه يؤمن بصدق هاتين الفاروزتين اللامعتين !

وجاء الصباح . وطلعت الشمس . وغارت النجوم
وأفاق ذلك الحالم . فلم يجد حوله أحداً ، غير كئاسى الطرق
يكنسون بقايا الكؤوس المحطمة والتيجان الممزقة .
وأكوام « حبال » الورق ذى الألوان ؟ التى كان يحسبها
قديرة على أن تربط الأجسام طول الأعوام ، أين
ذهبت « الملكة » ؟ لا يدري ! كل ما بقى منها هو قناعها
الحريرى الأسود ملق تحت أقدام المائدة .

آه يا سيدتى . لماذا فعلت ذلك ؟ ولماذا لم تخبرينى
« بشروط » اللعب من أول الأمر . لو أنى عرفت هذا
الوضع للأشياء . لمان كل هذا . ولكن المروع فى
الأمر أنى أخذت كل شىء على سبيل الجد .

ان من السهل على عقليتى الشرقية البسيطة أن
تعيش فى الأحلام كما تعيش فى الحقائق . وانها لتأبى أن
تؤمن بأنهميار الأشياء بتلك هذه السرعة !

لقد كنت أنت من غير شك تعلمين أن هذا

كله ليس سوى عبث لن يدوم طويلا . ويوم كنت أعتقد
أنا أنى انما أحييا فى جنة الأرض الجميلة . كنت أنت
تعرفين أنى انما أحييا فى مهزلة مبتذلة سخيفة .

لقد هبطت الأرض صافى النفس نقى القلب ، كما
هبطها ذلك الاله الهندى « ماهادوفا » الذى تروى
خبره الأساطير الهندية : لقد نزل الى الأرض كرجل
من الرجال ، يقرب أعمال البشر بين البشر . فقابل فتاة
جميلة حياها فحيتته ، وسألها عن أمرها . فقالت انها
راقصة من راقصات المعابد ، ورفعت « صفاقاتها » بين
أصابعها ورقصت له ألف رقصة ورقصة . ثم ركعت
أمامه وقدمت له أزهاراً ، وقادته الى مسكنها . وهناك
جعلت تعنى به ، جاهلة حقيقة أمره ، وتكشف له عن
قلب نادرنيل على الرغم مما يحيط به من أدران . وعاشا
فى سعادة الأرض ، الزمى الذى تُسمع به سعادة
الأرض . وفى ذات صباح استيقظت الفتاة فوجدت

حبيبها الى جانبها ميتاً . فبكته بكاء مراراً . وجاء الناس
والكهنة وأحرقوه كما يفعل الهنود بموتام ، فأسرعت
الفتاة وألقت بنفسها الى جانبه في اللهب . فأصعدها معه
الى السماء !

تلك قصة الفتاة الهندية ، أما الفتاة الأوربية
اليوم فانها تفعل غير ذلك . انها أعقل من أن تلقى نفسها
في اللهب من أجل الذي تحب . أما من لا تحب ، فهي
تعرف كيف تجعله هو اللهب وهو الحطب الذي يلقي
في المدفأة ، كي ينشر الحرارة في مسكنها المغطى بالجليد .
خيل الى ياسيدتي حقيقة أن ريحا باردة قد هبت على
ما كان بينك وبين مسيو «هنري» في يوم من الأيام .
وكان ينبغي أن أدرك أن قلبك يومئذ كان في حاجة الى
الدّفء ، وكان ينبغي أن أعلم أن المكان المعد لي انما
هو «الموقد» ؟ وأن هذا الوقود «الحى» ينبغي أن
يبقى حتى يحترق بأمله ، ويصبح رماداً ، وتنتهى مهمته

فتكنس ذرابة وتطرح في الهواء !

لست أحب ياسيدي أن أتهمك « بالأنانية » ،
ولكن عتبي عليك لا يعدو أمرا واحدا صغيرا : كان
يحسن بك أن تخبرني بمهمتي حتى أحترق على علم . وأفيد
الغير عن رضا . ولكنك شئت أن تسخرى بي من تحت
(قناعك) حتى تكون لك المتعتان .

لا نحسبي أنني حائق عليك . على التقيض . إن من
حقك أن تصنعى الذى صنعت . فالحياة عندك متاع .
وإني أحب لك السرور من أعماق قلبي . وإني لست
نادماً على ذلك القلب الذى قدمته إليك فى احترام ،
فألقيت به فى المدفأة . إنه لك على كل حال . إنه كان لك
تفعلين به ما تشائين . وقد فعلت به ما شئت . إنما الذى
يؤلمنى الآن : هو حياتى بعد ذلك . لقد أسرفت فى
الخيال . فجعلت منك كل جنتي . وعشت هذا الخيال ،
وليس من الهين على أن أعيش من فورى فى شىء

آخر . انى مثل ذلك (المألحد) الذى طرد حديثاً من
حظيرة (الايمان) فتشرد بعد ذلك (بقلبه) لا يدري
أين يسكنه ... مثله مثل صعلوك من صعاليك الحياة ،
اذا طلع النهار انساق الى ترهات العقل ، حتى يجن
الليل ، فيأوى (بقلبه) الى حيطان (العقيدة) ينطرح
فوق الأفاريز .

شأنى الآن هكذا . اعلم انك الآن شىء بعيد عنى
بعد النجوم ، ومع ذلك ما زلت اعيش معك ...
منذ تلك الليلة الحاسمة فى المطعم الى اليوم ، وانا لا انام
قبل ان اسمع صوت المصعد يقف على (طابقك الرابع)
وأصغى الى صوت قدميك الصغيرتين تخطران فى ذلك
الممر الطويل الى ان يفتتح بابك ويفاق فاعلم انك قد
عدت ، فأسرع الى نافذتى انظر الى الضوء المنبعث من
زجاج حجرتك . واطل على تلك الحال ساهرا حتى تطفأ
انوارك وتنامين ، وعندئذ تنام عيني ، كأنما انت التى تأذنين

لها في النوم . لا تحسبي ما أقول مبالغه مني . لا . إن
كثرة الترقب واعتياد التربص ، قد أكسبنا أذني مراناً
غريباً . على سماع أصوات المصعد والخطوات والأبواب ،
مهبطاً ومهباً اختلطت . إني بأذني أستطيع الآن أن اميز
وقع خطواتك من بين مئات . إني لم أر وجهك منذ
تلك الليلة لأنني لا اجروء على النظر إليك . ولكنني اقع
بعالم الأصوات التي تصدر عنك وتصلني بحياتك اليومية ؛
العجيب في الأمر اني اعلم ان كل هذا حق غير مجد .
ومع ذلك أفعله . وأعجب منه أني أحصى عليك خفية
كل حركاتك ، فأعلم انك تلك الليلة سهرت أكثر مما
يفبغي . لست ادري اين ؟ والليلة التالية عدت مبكرة ،
لست ادري لماذا ؟ معذرة ، هذا السلوك المريب مني ،
إنما أنا رجل شرير طرد من قصر « الحب » السحري ،
فهو يلجأ في رأسه اذا جنَّ الليل الى الحيطان والأفاريز ؛
ولقد فكرت بالفعل في ترك هذا النزول . والانصراف

الى شأني . وربما فعلت ذلك في يوم قريب . لكنني حتى
الآن لم اقول على ذلك .

إني افهم الآن موقف آدم عقب اخراجه من جنة
السماء . اني تخيله قد ليث بغير حراك في الموضع الذي
هبط فيه ، ومرت به ليال وايام وهو ينظر الى السماء ،
يرقب كل حركة فيها . اذا رعدت فهي صوت ابوابها
تفتح لتناديه من جديد ، واذا لمع البرق فهي ابتسامة رضا
قد يعقبها انفراج المحنة ، واذا تساقطت الشهب فهي
همسات غصّب ما زال قائما ، واذا استدار البدر فهو شفيع
وبشير بعودة الهناء القديم ، وكر الزمن وادم يتمرغ
في مكانه بين اليأس والرجاء عند ذلك المهبط من الأرض
يمسح وجهه بأعتاب النعيم . الى ان انتزعته غريزة
« الحياة » من هذا القنوط الطويل ، وارغمته على
النهوض ، فقام يدب في الأرض ويعيش كما تعيش
الاحياء من المخلوقات .

إني لست اعرف كم لبث آدم في الجنة من زمن ،
وإني لا أتوق إلى معرفة ذلك . ولكن الذي اعرفه على
التحقيق : ان جنتي انا دامت اسبوعين ، حسبها حسابا
دقيقا ، بالساعة والدقيقة . منذ الليلة التي ذهبنا فيها معاً
إلى مطعم « بوكاردي » الى الليلة التي خرجت فيها
وحدى من مطعم « الأوديون » . اسبوعان من النعيم ،
هما كل زادي ، وكل كنزى . *حليدك*

وبعد ... فاني قد اطلت عليك كثيراً . وليس من
حقي ان أسلبك كل هذا الوقت لتطالعي حماقتي . وليس
من حقي كذلك ان انتظر منك ردا على هذا الخطاب
الطويل . فحسبي منك برا وكرما ان تقرئيه في ساعة
فراغ ، انه على اى حال نوع من اللهو ، وهو على كل حال
صائر الى « المدفاة » !.. وإن كنت ارى ان « الشتاء » قد
انقضى فقد ظهرت عندك بشائر الربيع . امس رأيت على
نافذتك آنية يبسم فيها زهر « الكرز » في أغصانه

الرفيعة الأرجوانية . فذكرت اغنية (سان سانس) :

الريبع جاء

يحمل الرجاء

إلى قلوب العشاق

ما أ كذب هذا الشعر ! هذا الربيع ، على غير أمل
الناس فيه انما هو الذى جاء ينتزع الرجاء . . . ومع ذلك
فانى استقبل بوجهى نسامته العاطرة ، ولا أرجو منه
شيئاً كما يفعل الآخرون . انى اخشاه كما خشيه (حافظ
الشيرازى) :

حبي نسيم الربيع

قادنى الى الصجر

لقد حمل الى النسيم عطره

لكنه أخذ منى راحتى

إلهى ! لا تحمل هذا الجمال

الذى لا قلب له

وقر أشجان الهائمين بحبه !
لقد جثوت في الطريق الذي
عفرتة اقدامها

لكنها لم تدن مني
لقد ارتفعت توسلاتي وتنهداتي
فأزججت نوم الطيور والأزهار
لكنها لم تفتح عينيها
بالأمس مس الكوب شفيتها
وقال : انه يعطي الحياة !
فقلت : لا بل هي التي اعارته الحياة
ومع ذلك ، لو اني أمامها
مت محترقاً

لما أطفأت لهي بأنفاس شفيتها
ما أصدق هذا الشعر ! كل كلمة فيه كأنها عاشت
حياة آدمية !

أخيراً استأذنتك في طرح القلم ، فان الفجر قد
بدا من النافذة ، واخشى ان تغضبي للمجرد اني اختلست
طيفك ليلة ، .. ارجو مرة اخرى ان تغفري لى هذه
الثرة . فانا لست خيراً من « محسن » الآخر في
شئ . أعنى « البيغاء الصغير » ! انى لم اعد ارى قفصه
في نافذتك . فلعله حى يرزق . انى ايضاً حى ارزق .
لقد تحققت امنيتى . وتساوينا فى عين الحظ والنصيب :
« البيغاء الكبير » و « البيغاء الصغير » . ألا تذكرين ؟
ان كل ما يحزنتى من امر « محسن » الصغير انه هو
ايضا ، وقد اصبغ بعيداً عنك ، لا يستطيع هو ايضاً
ان يحبيك كل صباح بذلك الصغير المعتاد مردداً :
« أحبك . أحبك . أحبك »

« محسن ... »

الفصل السابع عشر

صديقي . . .

على الرغم من خطابك الذي وجهت إلى فيه كثيراً
من اللوم ، فاني ما زلت ادعوك « صديقي » . اولسنا
صديقين ، ما دمنا نشكو من عين الداء ؟ اني لم استطع
اليوم منع نفسي من الرد عليك . بل لقد هيمت فعلاً
بزيارتك هذا الصباح . غير أن خطابك . وما فيه من
صواب ، وما جاء به من عتاب . قد أشعرنى بقبح موقفي
طول الأسبوعين «المعروفين» . ولقد عدت الى حجرتي
بعد تلاوة كلماتك وانا حقيقة متألمة . ولقد وددت لو
اني لم اعش قط هذين الأسبوعين . اني خجلة . ولا
استطيع ان اقابلك وجهاً لوجه . كيف السبيل إلى محو
كل هذا من ذاكرتك وذاكرتي ؟

نعم . لست أنكر ، إني كأمرأة تحب بكل
جوارحها ، قد كنت حقا « أنانية » . إني فكرت
بالفعل ذات يوم في أمر تصرفاتي ، وتنبهت إلى ما فيها
من ضرر وشر . ولكني مع ذلك أقدمت على هذا الشر ،
أملة انك لن تعجز عن الانفصال عني نعم ، أرجو
أن تثق كل الثقة اني عند ما فكرت في كل هذا لم
يخطر لي قط على بال أن الأمر سيصل بك إلى مثل
هذا اليأس .

صدقني إني محزونة حقا لهذه النتيجة . وإني من
أعماق قلبي أبدى لك شديد أسفى .
لكن ... ما عساي أستطيع ان افعل لأنال الصفح ؟
إن آلامك تترك في نفسي ألما عميقا . وأرجو
منك أن تثق بذلك .

وبعد أتقبل مني ان امد يدي وأصافحك ..؟

سوزى دييون ...

حاشية — سألتني عن « البيغاء » الصغير ، وقلت
إنك لم تعد ترى قفصه في نافذتي ، هذا صحيح ، إنه ليس
عندي الآن ، فان أمر طعامه وشرابه والالتفات إليه
لما يحتاج الى وقت لا يستطيع ان أكرسه له ، فسمعت
لنفسى ان اهديه الى « كلوتيلد » حارسة المقاصير ،
وقد اوصيتها ان تعنى به كل العناية ، فكان مطمئناً
« س ... »

الفصل الثامن عشر

ترك محسن مسكنه في نزل « زهرة الأكلسيا »
واستأجر حجرة في النزل الذي يقطنه صديقه إيفانوفتش
وكان الروسي قد اشتدت عليه وطأة المرض . فلم يشأ
الفتى إزعاجه بكثرة الكلام ، فلزم هو أيضاً حجرته ،
لا يخرج منها إلا في الصباح ، يقطع شوارع الحى صامتاً
ثم يعطف علي باعة الماء كولات يوم السوق . فيشتري
« كيلو جراماً » من الأرز وموزة واحدة ، يعود بها
إلى حجرته حيث يهيء غداءه بيده . ذلك شأنه أكثر
الأيام . فقد نضبّت موارده من طول الإنفاق في المطاعم
الجيدة ودور السينما والمشارب ، وهو الآن لا يستطيع
حتى تناول الأكل في مطعم الحى الحقير ، إنه الآن يدفع
ثمن الأسبوعين اللذين قال إنهما « كل زاده وكل كنزه »

والذين قالت « هي » : « إنها شيء تمنى لو يعنى من
ذاكرتها ، وتود انها لم تعشها » !
ووقف الفتى أمام النار في أحد أركان حجرته ،
يرقب فوران الماء في آنية الأرز (الألومنيوم) ، وهو
صامت مفكر . شأنه في كل يوم من تلك الأيام التي
مضت كأنها أعوام ، يتبخر الماء فيصب غيره في
الأناء . ويتبخر فيصب غيره . والأرز لا ينضج ،
فياً كله آخر الأمر شبه حصي . ما من مرة نضج معه
هذا الأرز . وما من مرة خطر له ان يسأل احداً في
طريقة طهيته ، أو يغير هذا اللون من الطعام . لماذا يفعل
ذلك ؟ ليس للأكل الآن مذاق في فيه . وإن
(الكيلو) من هذا الأرز الرخيص ليكفيه خمسة أيام .
وكان لحجرة محسن الجديدة نافذة لم يفتحها قط منذ
مجيئه . ولم يدر على أي شيء تشرف . لا يريد أن يعرف ...
إن نافذة قلبه قد اغلقت . وما من شيء يسترعى التفاته

الآن . غير أسعار (الأرز) مدونة على البطاقات في
الحوانيت ، وغير عناوين الكتب القديمة ينظر إليها
معروضة في المكاتب دون ان يمسه . وكانا أحياناً يلمح
فوق غلاف بعض الكتب فقرة او عبارة او بيتاً من
الشعر وضع على سبيل الاستشهاد ، فيجعل منه (نغمة)
يظل فكره يرتب عليها (تقاسيم) طول النهار . وكان
يجد في هذا شيئاً من السلوى . غير ان بصره وقع ذات
يوم على كتاب جعل في رأسه هذا القول لشاعر ياباني :

إنما يبني الشاعر سعادته على الرمال

ويسطر اشعاره فوق ماء الجدول

الجارى

نعم . هنا كل البلاء الأدمى . الا يتمكن للنفس
الشاعرة ان تقيم هنهاها على دعائم اثبت قليلا من هذه
الرمال التي تفرق فيها الأبل . وتمكتب اغانيها على
صفحات ابقى من صفحات هذا الماء التي تطويها في شبه

طرفة العين انامل الهواء !

نعم هنالك سبيل واحد : لا ينبغي ان نبني شيئاً
جميلاً فوق هذه الأرض !! . هذه الأرض المتغيرة
المتحركة برمالها ومائها وهوائها !
وفطن الفتى : ان هنالك حقاً نوعاً من الهناء قد
عرفه يوماً . هو هناء الصفاء . هذا الصفاء الذي لا يوجد
إلا في الارتفاع ...

واحس الفتى فملاً كأنه قد خف وزناً ، وكأنه
يرتفع ، وكأنه يعتمد عن هذه الأرض . ليعود إلى
السماء . إلى سماءه التي كان قد هبط منها ...
ولعل «الأرز» اعانه على ذلك . فان «الزهد» هو
سلم «الصعود» !! .

واقبل الفتى بعدئذ على غذائه الحقيقير الضئيل في لذة
روحية . وبسمة راضية وضاءة . انارت له مسالك نفسه
المظلمة . وذكرته بسروره في صباح يوم كان يقتات «بالقول

النابت . ويجلس بكتابه كل يوم إلى جوار ضريح
(السيدة زينب) ...

لم يكن شيء يعكر عليه صفاء الروحي يومئذ غير
حارس المسجد ، ذلك الشيخ المتأنيق في عبادته الثمينة
وشعره المخضب بالحناء وعيونه الكحيلية ينظر بها إلى
صندوق (النذور) بين يديه ، وغير سجاجيد المسجد
الغالية . وثرياته الكبيرة . لماذا كل هذا ؟ إن الفتى لم
يكن قط يخالجه شعور اللذة العليا إلا وهو فوق الحصر
حيث كان يتخذ مكانه دائماً ، لا في قاعة الضريح ذاتها حيث
الفرش والرياش . وبقية تلك المظاهر الحمقاء لذلك
الإحترام الكاذب والخشوع الزائف . إنما في تلك
الردّة الخارجية التي طرح الحصر على بعض أرضها
وترك البعض الآخر عارياً نظيفاً . كالنفس النظيفة
العارية . كان يحس الفتى هنالك أنه أقرب إلى روح
السيدة الطاهرة ...

وجعل محسن طول يومه هذا يقرب مثل هذه
الأفكار . وعاوده شوق وحنين إلى المسجد . أو إلى
بيت من بيوت الله . وتذكر الكنيسة . نعم إن فيها
أيضاً قد أحس يومئذ عين إحساس الصعود . لكن ،
تلك المراسيم والطقوس . . . سرعان ما جذبت به إلى
الأرض لتوقعه في ذلك الحرج الذي وقع فيه ذلك
اليوم . . .

نعم ، كلما همت روح الانسان بالتحليق نحو
الأعلى كبلتها أكاذيب الانسان وأزالتها إلى التراب ،
كل شقاء الانسانية أنها لا تستطيع أن تترك شيئاً عظيماً
ذا قداسة بغير أن تلبسه ثياباً مبتذلة مضحكة من حمقها
وزيفها وغرورها ؟

لماذا أراد الناس أن يعملوا (الله) في حاجة إلى
السجاجيد الفارسية يفرش بها بيوته . و (السيدة) في
حاجة إلى (النذور) والنجف والشمع . كأنها لا تستطيع

النوم في الظلام . ثم ذلك (القمقم) الفضي في الكنيسة ،
وتلك الأشارات والعلامات ، لماذا كل هذا ؟؟ حتى
(الموسيقى العظيمة) التي استطاعت أن ترفع الانسان
إلى بعض القمم ، سرعان ما جعلوا لها ثياب سهرة ترتدى
من أجلها ، وقواعد وتقاليد لا بد من مراعاتها . وتنقلب
الأمر على مر الزمن ، فينسى الناس الأصل والجوهر
ويذكرون الفرع والعرض . فاذا كل التفاتهم إلى
ثياب السهرة دون (الموسيقى) . وإذا كل عنايتهم
بالمظاهر والمجاملات دون الايمان والعبادات . ولا
يستثنى من بين هؤلاء إلا الفقراء التمساء الذين جاءوا
حقيقة للصلاة ، ومن بين أولئك .. إلا الهواة (زبانن)
أعلا (التياترو) الذين حضروا حقيقة من أجل
الموسيقى .

إن «الإخلاص» للدين والفن ، يستوجب

«التجرد» !

وذكر محسن « ينهوفن » . وتلك السانفونية
الخامسة التي كان قد سمعها . وذكر ذلك الجو العلوِي
الذي عاش فيه ذلك اليوم . فحدثته النفس بالذهاب إلى
« الكونسير » .

نعم ، فليذهب ولو أدى ذلك إلى حرمانه أكل
الموز شهراً بأكمله . لا لزوم للفاكهة . إنه يستطيع أن
يكتفي بالأرز أسبوعاً . وأشرق وجه الفتى لهذه
الفكرة . وأحس كأن برداً وسلاماً يهبطان قلبه
ويضمدان جروحه . إنه الآن يشعر ببعض القوة . ولم
يعد يخشى شيئاً . هو الذي كان قد حرم على نفسه ،
خوف الضعف ، ذكر الجميلة قاطنة نزل زهرة
« الأ كاسيا » . تلك التي أجهزت على أمه ذبحاً بخطاب
رقيق رقة حد السكين المسنون !

نعم ، الآن . . . بقليل من الموسيقى يستطيع أن
يعتصم بالسحب ضد هذا الحب الأرضي الذي وضع
أنفه في الرغام .

وذهب محسن إلى مسرح « شاتليه » ، فوجد من
حسن حظه (برنامجاً) موسيقياً حافلاً : (باريسفال)
(و سحر يوم الجمعة الحزينة) لريتشارد فاغنر ،
(و السانفونية التاسعة) لبيتهوفن .

وكانت تقوده لا تسمح له بأكثر من مكان
لوقوف بأعلا المسرح . فما تردد . وكان حريصاً دائماً
على اقتناء ذلك الكتيب الصغير الذي يباع في الردهة ،
فان فيه تحليلاً دقيقاً في أكثر الأحيان للقطع التي تعزف ،
وبيانا عن ظروف وضعها . ونبذاً من تاريخ مؤلفيها
فما أحجم عن شراء نسخة . وأسرع يتخذ له مكاناً تحت
مصباح من مصابيح الكهرباء ، وجعل يطالع على عجل
هذه السطور :

(لقد أراد فاغنر أن يصور بموسيقاه قصة المسيح
إذ جاء يحمل إلى الانسانية التي نخرت فيها « الأناية »
ناموس « الحب » الذي يخلصها من الخطيئة . ولقد جاء

في خطاب خاص أرسله فاجنر إلى صديقه الموسيقى (است) كيف نبتت في خاطره فكرة تأليف هذه القطعة ، ووصف الشاعر التي أثارها في نفسه ذكرى الجمعة الحزينة في يوم من أيام الربيع . حيث كان في مدينة زوربخ : « لأول مرة استيقظت يوم الجمعة المقدس على شمس مشرقة . فنظرت إلى الحديقة حولي فألفيتها خضراء تصدح فيها العصافير . جلست على عتبة البيت أنعم بهذا (السلام) الذي انتظرته طويلا . وأثر في نفسي هذا الصفاء الذي يكتنف الأشياء . فتذكرت من فوزى أن اليوم هو يوم الجمعة المقدس . وعند ذلك خطر لي أن أضع هذه القطعة . . . »

وانقطع محسن جأة عن القراءة ، فقد أطفئت الأنوار . ووقف (المايسترو) ينقر بعصاه الرفيعة نقرأ خفيفاً على قمة مصباحه الأخضر تنبيهاً للعازفين ، وبدأ الأوركستر يعزف مقدمة (باريسفال) :

نغمة ترتفع منفردة أول الأمر لا يصحبها شيء ،
كأنما هو صوت واحد يتكلم ، وسط سكون الكون .
صوت في عين الوقت إلهي وبشري . وتمضى تلك النغمة
حاملة في أعماقها بذور الألحان الدينية التي تتركب منها
القطعة . إلى أن تقابلها تلك الأقوال المقدسة : خذوا
وكلوا هذا هو جسدي . خذوا اشربوا هذا هو دمي . .
ثم يسمع من (الكوايمور) شبه رعدة مبهمة بين عديد
من الأنغام السريعة المتعاقبة ورنين الصناجات المكبوت ،
كأنما هو صوت طليق ممتد يخفت شيئاً فشيئاً تحت
قباب كاندرايئة عظيمة . . .

واستمر الأداء . ومحسن ليس على هذه الأرض
إلى أن أشار (الأستاذ) بعصاه إشارة الانتهاء ، وانطلقت
الأيدي بتصفيق كأنه الرعد . فتنبه الفتى . وقام الناس
يدخنون في فترة الاستراحة أو يتحادثون . وبقي محسن
واجماً في مكانه . ولمح على المسرح حركة دخول أفراد

مجموعة المنشدين (الكورس) من سيدات ورجال
ينتظمون في أما كنهم ، فرفع الكتيب إلى عينيه ليقرأ
ما قيل عن قطعة يتهوفن ، وبهي نفسه المشول بين يدي
هذا القلب العظيم . كي يسمع منه . ويفهم عنه . وقرأ
الفتى هذه الصفحة : (وبلغ فن يتهوفن في السانفونية
التاسعة غاية ما يستطيعه بشر في عالم البناء الصوتي . ولقد
أخرج هذا العمل في تلك المرحلة من حياته التي ابتلى
فيها بالصمم . كارثة ، جاء ذكرها في وصيته التي كتبها في
أكتوبر ١٨٠٢ على أثر أزمة قوية من أزمت اليأس
تبدو من هذه الأسطر : إلى شقيقى كارل وجوهان
يتهوفن . أنتما يا من كنتما تحسبان أنى إنسان حقود
عنيذ أكره الناس . ما أظلمكما ! إنكما لتجهلان السبب
الخفى لكل هذا الذى ظهر لكما من أمرى . إني منذ
الطفولة كنت أحس أن نفسى وقلبي يتجهسان بطبعهما
إلى الخير . إني كنت دائماً على استعداد للقيام بأعمال

عظيمة . لكن . . . لا تنسيا أنى منذ أعوام ستة أصبت
بداء قاس ، زاده خطراً عجز الأطباء . وأنى ألفت
نفسى مرغماً على العزلة قبل الأوان . وعلى إنفاق بقية
حياتى بعيداً عن العالم . ولقد حاولت أن أتجاهل أحياناً
ما نزل بى ، ولكن التجربة المؤلمة كانت تذكرنى
دائماً بأنى قد فقدت السمع ، ومع ذلك فانى لم أستطع
أن أتجرأ مرة وأقول للناس : تكلموا بصوت عال ،
صيحوا . إنى أصم ! . آه كيف أعترف بهذا وأعلن
للناس ضعف حاسة . كان ينبغي أن تكون عندى أقوى
مما عند جميع الناس . حاسة كنت أملكها فيما مضى
على أكل نحو وأدق تركيب وأرهف شعور . مما لم
يتيسر مثله إلا لقليل غيرى من الموسيقيين . كلا .
لا أستطيع . لهذا أرجو أن تصفحاعنى إذا كنت اليوم
أهجر . كما ترى ، هذا العالم الذى كنت فيما سبق
أمرح فيه بكل نفس راضية . إنى لشديد الاحساس

بمصيبتى . وإني من أجلها ينكرنى الجميع . لم يعد الآن
من حقى أن أنشد الراحة فى صحبة اخوانى الأدميين :
انتهت مسرات المحادثات اللطيفة ولذات المناقشات
الرفيعة . انتهت المصارحات القوية وتبادل المناجاة
الحارة . حالى الآن لا يسمح لى بارتياح المجتمع إلا بالقدر
الذى تحتمه الضرورة القصوى . ينبغى إذن أن أعيش
مطروداً منبوذاً . أى اذلال يجرح نفسى أحياناً ، إذ
أرى الى جانبى أحد الناس يصغى الى أنغام مزمار يعزف
عن بعد . لا أستطيع أنا أن أسمعها ، أو أناشيد راع :
لا أستطيع أن أسمعها كذلك . (يروى أحد أصدقاء
بيتهوفن انه فى صباح صيف ١٨٠٢ استرعى التفات
صديقه إلى راع فى الغابة يعزف على ناي من قصب
الحانا شجية ، فأبدى بيتهوفن جهداً مرهقاً لىسمع
شيئاً فلم يستطع . ورفق به صديقه فكذب عليه وزعم
له أنه هو أيضاً لا يسمع شيئاً لبعده الصوت عنها ،

ولكن يتهوفن فهم الحقيقة وغرق في حزن عميق) .
مثل هذه الحوادث كانت تلقى بي على أعتاب اليأس ،
وكادت تغريني بأن أضع حداً لاياًى . . . ولكنه الفن
وحده هو الذى أبقى على حياتى . آه . إنه ليشق على ترك
هذا العالم قبل أن اعطى كل ما احس داخل نفسى من
مخلوقات لم تزل بعد فى طور التكوين ! . . . آه أيتها
القدرّة الالهية ! إنك لترين من عليائك ذلك القاع
السحيق فى اعماق قلبى . إنك لتعرفين انه عامر بحب
الانسانية والرغبة فى عمل الخير . يا شقيق كارل
وجوهان . إذا انتهت أيامى وكان طبيبى الأستاذ «شميت»
لم يزل حياً . فالتسا منه باسمى ان يصف دأى وان يرفق
ذلك بصفحاتى هذه . فلعل الناس بعد موتى يصفحون
عنى على الأقل . أما إساءتك لى ، فأتما تعلمان انى قد
صفحتم عنها منذ أمد بعيد . . . وكل ما اتنى الآن أن
تكون حياتكم اليسر من حياتى وان تعفيا مما رزمت أنا

به من متاعب . وأوصيكما أن تعلما أطفالكما «الفضيلة»
فهي وحدها . لا «المال» . السبيل الحقيقي للسعادة .
وإني أتكلم عن تجربة . «الفضيلة» هي التي كانت كل
سَنَدِي في مَحْنَتِي . وإليها وإلى «فني» يرجع كل الفضل
في اني لم الجأ إلى الانتحار . وداعاً ! وليحب احدكما
الآخر ! ... » لقد كان يتهوفن يعيش اذن في ظلام
السكون عندما اخرج سانفوننته التاسعة . ولقد احتمل
كل ذلك في جَلْد كما قال في وصيته ولقد خضع لحكم
القدر في شجاعة كما يقول في مذكرات أخرى :
«الإذعان ، الاستسلام . الاستسلام ، فلنعرف كيف
نستخرج الدرس الخلقى النافع من أفدح المصائب
والكوارث .. بذلك نجعل أنفسنا جديرين بمغفرة الله !» .
لم يبق إذن لبيتهوفن من الحياة غير مُتَمَعَّة «البصر»
عيناه وحدهما امستا كل صلته بالطبيعة . وقد انحصر
كل فرحه في إرسال النظر إلى وديان « فينرفالد »

الخصراء ، يهيم في غاباتها ملتصقاً من الطبيعة العزاء ،
أملاً أن يجد في صدرها كل قوى الحياة والخلق ، صامحاً
في فضاءها من أعماق قلبه تلك الصيحات التي وجدت
مُدونة في أوراقه :

« يا رب الغابات ، يا رب القدير على كل شيء ،
إني أحس البركات ، وأشعر بالسعادة في هذه الغابات ،
هنا كل شجرة من هذه الأشجار تسمعني صوتك . يالها
من روعة أيها المولى العظيم ! هذه الأحرار ، وهذه
الوديان ، تفوح برائحة الهدوء والسلام . هذا السلام
الذي لا بد لنا منه لنستطيع ان نتفانى في خدمتك ! » .
ووقف محسن عن القراءة في عجب وتأثر شديد
لكأن عبيراً يعرفه يهيب من طيات هذه الكلمات . إن
هي إلا كلمات صادرة من التبّع الذي صدرت منه كلمات
أنبياء الشرق .

وأطفئت الأنوار وتكلم يتهوفن . إنه لا يتكلم

كبقية الناس . لكنه يقيم من الأصوات علما لا تدخله
ولا تسكنه غير الأرواح الخيرة المهذبة . وتحدت أركان
تلك السانفونية . ووضحت للأذان والأرواح هيكل
عظيما مشيدا على أعمدة نورانية . من أنعام آلية
وأصوات آدمية . . .

ولم يتمالك محسن . وأخذته رجفة . وتصيب جبينه
بمَرَقِ نَشْوَةٍ عليا . عندما ارتفعت الأبواق النحاسية إلى
جانب صيحة « الكورس » :

« قفوا متعانقين

أيتها الملايين من البشر

أيها الأخوة .

أن فوق النجوم أبا

جيبيا إلى كل القلوب !»

وليث الفتي مشدود الأعصاب متفصد الجبين في
شبه دُهول ، حتى عزف « اليجرو » الختامي . والتقت

أصوات الرجال والنساء بصوت « الأوركستر » .. ،
فكأنما أستار السماء قد انفرجت ، ليصل إلى آذاننا غناء
الْحُورِ وَالْمَلَائِكَةِ مجتمعين في جنة الخلود يلقون نَشِيدَ
الفرح ، ذلك القَبَسِ الإلهي . فَرِحَ الأَنْفُسَ الَّتِي تَعِيشُ
فِي « اللهُ » !

الفصل التاسع عشر

نزل محسن الدرج ليخرج كعادته إلى الطريق ،
يستنشق هواء ذلك الصباح الجميل . فرأى باب حجرة
صديقه إيشان مفتوحا ، وسمع سعاله ، فعطف عليه
وضرب الباب مستأذنا . فأذن له . ودخل الفتي فوجد
الروسي جالسا على سريره . أصفر الوجه . بين يديه
كتب ثلاثة .

- كيف حالك اليوم يا مسيو إيفانوفتش ؟

- بخير .

- إنك تجهود قواك في القراءة وأنت لم تنزل

مريضا .

- اجلس ! ...

قالها الرجل على نحو غريب . عجب له الفتي ونظر

بطرف عينه إلى الكتب وقرأ في دهشة :

— التوراة ، الأنجيل ، القرآن !

ثم التفت الى ايفان :

— عجباً ! اذك فيما أعلم لا تؤمن بشيء . . .

فقال الروسى كالمخاطب لنفسه :

— أريد أن أعرف كيف استطاعت هذه الكتب

الثلاثة أن تعطي البشرية راحة النفس وأن تغمرها في

ذلك الاطمئنان ! نعم . انى لا أؤمن بشيء . وانى أرى

أحياناً الموت دانياً منى وفي يده « خِرْقَةٌ » لِيَمْحُوْنِي كما

يَمْحُو رِقْمَ كِتَابٍ بِالطَّبَاشِيرِ فوق لوحة سوداء ! فأحتقر

نفسى وازدرى كل حياة انسانية . آه . ما أسعد أولئك

المؤمنين الذين يرون الموت مَرَحَلَةً الى حياة أخرى مجيدة

جميلة . انهم لا شك ينظرون الى الموت كأنه عربة

« پولمان » فى قطار سريع يذهب بهم الى نُزْهَةٍ « آخر

الأسبوع » . . . ان مثل هؤلاء لا يمكن أن يروا

الحياة الانسانية الا أنها شيء عظيم . لانها تَسْفَلُ الكون

دائماً ، طول الخلود ، إنهم لا يستطيعون أن يزدروا
انفسهم هؤلاء الناس !

— ولماذا لا تؤمن انت ايضا بالحياة الأخرى

يا مسيو إيفان ؟

— آه ! ثق اني اريد . فالرغبة والارادة لا تعوزاني .

ولكن ... أمن الممكن لمثلي الآن ان يؤمن بالجنة والنار

كما كان يؤمن بها المسيحيون في عصر الشهداء . إنهم

كانوا يتقدمون للذبح . ويلقى بهم الى آتباب السباع وهم

يسمون ، راضين مقتنعين ان ابواب الجنة مفتوحة

لاستقبالهم . مصغين الى صوت المسيح يقول لهم من

عل : « طوبى لكم اذا عيروكم وطرادوكم وقالوا عليكم كل كلمة

شريرة من أجلى كاذبين ، افرحوا وهللوا . لأن أجركم

عظيم في السموات ! » .

— ومثل ايمان المسلمين في عهد النبي ، فقد حدث

في موقعة « بدر » التي نشبت بين المسلمين وأعدائهم

من قريش ، ان مسلماً ترك القتال واتحى يأكل بلعاً ،
فسمع النبي يقول : « لا يقاتل اليوم رجل فيقتل صابراً
محتسباً الا ادخله الله الجنة » فقذف الرجل بالبلع من
يده ، وقام يصيح : « أفا يبنى وبين دخول الجنة إلا أن
يقتلني هؤلاء !؟ » ثم رمى بنفسه في أَحْضَان الأعداء ...
- نعم ، يخيل الى ان مثل هذا الايمان لا يمكن ان
يعرفه الغرب اليوم . إن الشرق يوم أعطى الغرب هذه
الأديان ، إنما اعطاها على النحو الذي ذكرنا . فتسامها
الغرب وألبسها أردية مَوْشاة بالذهب ووضع على
رؤوسها التيجان المرصعة بالماس واقبضها صونجانات
الجاه والسلطان والجبروت الأرضي . إن الكنيسة في
أوروبا كانت في يوم ما أعظم مَوْسسه مالية . وان نظامها
الرأسمالي لأدق نظام . وان ثروتها الطائلة لتسند ظهر
أقوى البيوت المالية وتقوضها اذا شاءت في طرفة عين .
فأين ذهبت كلمة المسيح : « ما أعسر دخول ذوى

الأموال إلى ملكوت الله . لأن دخول جمل من ثَقَب
إبرة أيسر من أن يدخل غنّي إلى ملكوت الله ! » .

- وابن ذهب كُلمة النبي محمد : إني قد أوتيت
مفاتيح خزائن الدنيا والأُخُلْد فيها ثم الجنة ، فَخَيَّرْتُ بَيْنَ
ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي وَالْجَنَّةِ . فَاخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي وَالْجَنَّةَ !
ثم قوله ايضاً : « اللهم توفني فقيراً ولا توفني غنياً
واحشرنى في زمرة المساكين ! » .

- نعم لا شك ان المسؤول عن انهيار مملكة السماء
هم رجال الدين انفسهم . اولئك الذين كان ينبغي لهم ان
يتجردوا من كل متاع الأرض ويظهروا في زهدهم بمظهر
المنتظر حقاً لتعيم آخر في السماء . لكننا نراهم هم اول من
يَتَمَعُّ بِمَمْلَكَةِ الْأَرْضِ وما فيها من أكل طيب يَكْنِزُونَ بِهِ
لِجَمَاءِ ، وَخَمْرٍ مَعْتَقٍ يَنْضَحُ عَلَى وُجُوهِهِم الموردة . وتحت
إمّرتهم السيارات يركبونها والمرتبات يقبضونها ...
إنهم يتكلمون عن السماء . وكل شيء فيهم يكاد ينطق

بأنهم يرتابون في جنة السماء ، وانهم متكالبون على جنة الأرض ، هؤلاء هم وحدهم الذين شككوا الناس في حقيقة مملكة السماء . ان كل ما بناه الأنبياء بزهدهم الحقيقي وجوعهم وعُرْبهم الذي اقنع الناس بأن هؤلاء الرسل إنما هم حقا ينتظرون شيئا في العالم الآخر . جاء هؤلاء فهدموه ، ... وكانوا هم اقوى دليل على كذب مملكة السماء وخير دعاية لمملكة الأرض . وأنسوا الناس بانغماسهم في هذه الحياة ، ان هنالك شيئا آخر غير هذه الحياة .

— صدقت في كل هذا يا مسيو إيفان . إن مسلك رجال الدين قد يشكك عامة الناس .. لكن أنت ... من كان مثلك على هذه الثقافة وهذا العلم إنك تستطيع ان تقيم ايمانك على أبواب الكتب السماوية وحدها بغير حاجة إلى ... أحد ...

— وهذا ما اردت ان افعله ايها الصديق . منذ

منذ ليال وايام .. غير انى ... ينبغى ان اصارك ...
لم استطع .. لم استطع مطلقا .

— لم تستطع ماذا ؟

— آه .. لقد فسدت فى رأسى كل تلك الصور
الجميلة للحياة الأخرى ، كما تفسد زجاجات الصور
الفوتوغرافية عند ما ينفد الضوء الى حجرتها السوداء ..
لست ادرى سببا لذلك ، يخيل الى انها الحضارة
الأوروبية الحديثة ، لا تسمح للناس أن يعيشوا إلا فى
عالم واحد . إن سر عظمة الحضارات القديمة انها جعلت
الناس يعيشون فى عالمين . لقد عرفت تلك الحضارات
« العلم » و « العلم التطبيقي » فالحضارة التى تشيد الأهرام
لا يمكن ان تجهل العلوم النظرية والتطبيقية . ومع
ذلك فان ذلك العلم لم يفسد من الرؤوس زجاجات الصور
التي تمثل الحياة الأخرى . تلك الحضارات اسمها أنا
« الحضارات الكاملة » . ولكن آسيا وأفريقيا ارتبطا

بالزواج في طور من اطوار التاريخ وانتجا مولوداً جديداً :
هذه الفتاة الشقراء التي تسمى « أوروبا » : جميلة
رشيقة ذكية ، لكنها خفيفة انامية لا يعنيتها الا نفسها
واستعباد غيرها . . .

وهنا قاطعه محسن قائلاً كالمخاطب نفسه :

- نعم . « انامية » لا تعرف غير حياة الواقع ،
ولا يهتمها شقاء الغير ، ولا تحب الحياة الا في . . . الحياة .
فمضى الروسي يقول دون ان يفهم ما جال في خاطر
الفتى :

- نعم ، نعم . هي كذلك حقيقة . إن هذه الفتاة
ترى المجد كله في شيء واحد : ان تضع الأصفاد في
أرجل البشر . وبدأت اول ما بدأت بأبويها : إفريقيا
وآسيا . أنكرتهما وحبستهما . وانطلقت في الحياة
لا يحدّها حد ولا يقوم لها شيء . الى ان انتهى بها المطاف
في بيت من بيوت الليل تديره وتشاهد فيه شجار

السَّكَارَى يحطمون الكراسى والكؤوس . انى اخشى
ان تكون اوروبا مُوشِكة على دفع الانسانية الى هُوَّة .
إنها لتثوب احياناً الى رشدها وترى مصيرها فتقع في
ازمة من ازمات الضمير . انها لتستيقظ فيها الروح احياناً
فتشك في نفسها ويخيل إليها ان مدينتها الخلابة ليست
إلا بهرجاً ، وأن علمها الحديث كله وهو وحده الذى
تتبعه على البشرية في مختلف تاريخها ، ليس من حيث
القيمة العملية غير « لعب » من صفيح وزجاج ومعدن ،
قدمت للناس بعض الراحة في امور معاشهم . ولكنها
اخرت البشرية وسلبتها طبيعتها الحقيقية وشاعريتها
وصفاء روحها . إن السكك الحديدية والطائرات قد
اعطتنا السرعة وتوفير الوقت . ولكن ما فائدة ذلك ،
ولماذا السرعة . ولماذا توفير الوقت . كأنما قد هبطت
علينا شياطين تلهب ظهورنا بالسياط ، ما نحن الا قطرات
ماء في نهر الحياة . ما حظنا من سرعة التيار واندفاعه إلى

البحر ! إنما حظنا الأكبر في التمهّل حول الأعشاب
النائمة والسكون عند شواطئ الجزر يداعبنا النسيم !
من الذي استفاد من هذه السرعة الملعونة غير قبضة من
التهمين جمعوا في أيديهم الثروات وسموا بالرأسماليين .
أما أنا وانت وبقية الأدميين الوادعين فقد خسرت تلك
الرحلات الطويلة الجميلة على ظهور الجياد أو الأبل .
نزل في كل مرحلة نتم بالطبيعة في أشكالها المختلفة وفي
أوقاتها المختلفة . نعم كسبنا السرعة ولكن خسرنا ثروة
النفس التي تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة . إنما اليوم نفرح
بكلمة السرعة . وننسى أنها ليست سوى إغفاءة نقضها
في عربة قطار يمرق بنا في نفق مظلم ويوصلنا حقيقة في
وقت قليل إلى حيث أردنا . ولكننا لا نعرف بعد ذلك
ماذا نصنع بالوقت الباقي ، فننفضه في الحق والسخف ، ان
الطبيعة لتنتقم . وان كل وقت يسرق منها . لا نجد له سوقاً
تتفق فيه غير سوق النخاسة الخلقية والانحطاط الأدمي !!

كذلك السينما كما يقول دو هاميل لا تعطينا غير الطبيعة محفوظة
في العُلمب أو قصصاً سخرية تؤثر في أعصابنا تأثير الأفيون .
والراديو وما يقدمه من قشور المعلومات وردى الموسيقى .
كل شيء في هذه المدينة الحاضرة يتأمر على قتل الفضائل
الانسانية العليا وصفاتها الادمية السامية . وقواها الطبيعية
الكامنة بتعويدها التراخي والكسل باسم « الراحة
الحديثة » حتى نامت كما ترى النفوس والارواح ،
واصبحنا امام ناس مصنوعين من « الألومنيوم » .
مصيبه المدينة الأوربية نزلت منذ استقرار الصناعة
الكبرى . هذه الصناعة التي شطرت المجتمع الأوروي
إلى شطرين ، فئة قليلة كل همها جمع المال . وفئة كبيرة
كل همها ان تقدم هذا المال في مقابل لقمة . الفئة
الأولى لا دين لها الا الذهب . والفئة الثانية لا دين لها
اطلاقا ولا شخصية ولا نفس . لأنها آلات صماء . إن
نظام تقسيم العمل قد أدى إلى أن صنع الدبوس الواحد

اصبح محتاجا الى ثمان عشرة عملية مختلفة كما يقول آدم
سميث . وان العامل الواحد قد يقضى حياته كلها في صنع
رأس الدبوس فقط . وآخر في صنع جزء آخر منه .
كذلك الحال في صناعة الأُحذية فهي في بعض العمال
الأمر بكية تقسيم الى أكثر من مائتي عملية يخص العامل
الواحد منها جزءاً واحداً من عشرة أجزاء كعب الحذاء
معنى هذا ان العامل لم تبق له حتى تلك اللحظة الفنية القديمة
التي كان يحسها ويرتاح إليها وهو يصنع بيديه حذاء
كاملاً في حانوته الصغير . نعم . حتى مُتعة الخلق الكامل
التي كانت تُشعره بأدميته قد ذهبت ، واصبح الآن شأنه
شأن المحرطة أو المطرقة أو المنشار . يخرط أو يطرق أو ينشر
جزءاً صغيراً معيناً بالذات من هذا الدبوس أو ذلك الحذاء .
وهو يكرر هذه العملية التافهة كل حياته . ما الفرق بينه
اذن وبين الآلة ؛ لا فرق . ان الرجل الشرقي مازال يحس
أدميته بالنسبة للشئ الذي يصنعه ويخلق بيديه ، آنية من

الفخار كان أوحذاء أورداء منسوجا على نول . أوقطعة أرض
يزرعها ويحني ثمارها . إنه لم ينقلب بعد لحسن حظه
منشأراً آدميا او مخرطة بشرية . استمع الى الكاتب
الانجليزي « ألس هكسلي » يصف أوروبا الحديثة :
« إن أسلوب الحياة في العصر الحاضر ليدعو إلى الإشمئزاز
ذلك أن تطور النظام الصناعي قد أدى الى نمو عجائبي لتعداد
أوروبا ، ففي نحو قرن واحد تضاعف سكانها . ثم جاء بعد
ذلك التعليم الابتدائي للجميع . فنتج عنه ظهور جمهور
هائل من القراء . ونشط لهذا الجمهور اصحاب الأعمال
فأنشأوا صناعة جديدة : هي صناعة « مادة القراءة » .
هذه « المادة المقروءة » لم تكن ولا يمكن ان تكون
مطلقاً غير بضاعة من النوع الرديء جداً . لماذا ؟ تلك
مسألة حساسية : ان عدد الكتاب اصحاب الموهبة الفنية
قليل دائماً . ومن هنا ترى ان الجانب الأكبر للأدب
المعاصر هو دائماً غاية في الرداءة . ولما كان الأوربيون

قد أخذوا عادة القراءة طول الوقت . وتلك رذيلة ،
كعادة تدخين السجائر . بل ربما كتدخين الأفيون
أو تعاطى الكوكايين . فان أوروبا اليوم تتغذى بأدب
من الطبقة العاشرة . وهذا كله حدث جديد . إذ في
الماضى لم يكن الناس يعرفون غير قليل من الكتب حقيقة ،
لكنها كانت من أجود نوع . ولأضربين مثلاً بالإنجليز .
فلقد كانوا إلى عصور قريبة يَشْبُون على « الكتاب
المقدس » وعلى « رحلة الحاج » لجون بانيمان . كتابان
لا نظير لهما في بُل المعنى وصفاء الأسلوب . أما اليوم فانهم
يشبون على « الديلي إكسبريس » وعلى المجلات والقصص
البوليسية . فالتعليم العام كان له هذه النتيجة السيئة :
فهو بدلا من أن يجعل الناس يقرءون قليلا إلا نارا الخالدة
قد جعلهم يقرءون دائما حماقات مُخجلة ! ان الفن القديم قد
يقصر أحيانا عن الاجادة لأنه ساذج أو ناقص ، ولكنه
لم يكن يوماً قط مُبتدلاً . لماذا ؟ لأن الأقدمين لم تهباً

لهم الأسباب أن يكونوا مبتدلين !

فأطرق محسن قليلاً ثم قال :

— نعم ، ربما كان هذا صحيحاً . إن الأعرابية في
خَيْمَتِهَا . تلك التي كانت لا تعرف ما هي القراءة
والكتابة . كانت تتذوق الجيد من شعر جرير والأخطل
والفرزدق . وتتغنى بأحسن أغاني مصعب ونصيب
وإسحق الموصلي ، وتطرب للفجر الجميل وتهتز نفسها
لنسيم الأصيل ، وتفضل الصحراء بفتنتها الطبيعية على
سحر القصور الزائف ، إن مستوى الذوق العام
وبالأحرى مستوى الثقافة الحقيقية لا شأن له بكتابة
أو قراءة .

فقال الروسي بقوة :

— على النقيض ، إن فكرة التعليم العام للقراءة
والكتابة كغيرها من بقية الأفكار الأوروبية الخاطئة
التي روجتها أوروبا وجعلتها بمثابة المبادئ الثابتة ثبوت

العقائد . قد انقلبت أسلحة فتنا كالجوهر الطبيعة البشرية
فالدِّهْمَاءُ التي تعلمت تلك الرموز السخيفة ماذا اكتسبت ؟
لقد حشيت أدمغتها بسخف وقاذورات كما يقول
« هكسلي » ، وهبط مستوى ذوقها . ومع ذلك لم
تتكون لها شخصية ولا إرادة . فيها أنت ذاتها تنقاد
كالخراف إلى كل من يقوم فيها ناعقاً أمام « ميكروفون »
فالدِّهْمَاءُ هي الدِّهْمَاءُ . ولا أصلح لقلبيها وعقلها من وسائل
الشرق الطبيعية في التهذيب : تعبير قلبها بالدين وعقلها
بالكتب السماوية النبيلة الفصيحة وتركها تتصل بالطبيعة
لا « محفوظة في علب » الراديو والسينما والكتب ،
ولكن الطبيعة الحقيقية . أمنا الرؤوم : تكشف لهم عن
جمالها وأسرارها مباشرة ، بغير وسيط من الرأسماليين
المغامرين وأصحاب الأعمال الأفاكين . تلك هي نتائج العلم
التطبيقي عند ما ترك في أيدي الأوروبيين . وذلك أثره
في النفس الانسانية . أنظر بعد ذلك أثره في جسم

البشرية ، تجد أنه استحال إلى قنابل وغازات خانقة
وطوربيسد وغواصات ودبابات إلى آخر ذلك الابداع
والتفنن في وسائل الفتك بأجسام البشر . فالعلم التطبيقي
في الغرب كل محوره تحطيم البشرية روحا وجسما . إن
العلم تلك « الماسة » العظيمة المتألقة لم تضعها أوروبا في
قمة عمامتها لتشع نوراً وجمالا . ولكنها وضعتها في سن
مخرطة بخارية لتقطع بها زجاج ذلك الكأس العظيم :
كأس البشرية الممتليء بماء روحها ومادة جسدها .
أما العلم الصرف البعيد عن ضوضاء « الآلة » ومطامع
أصحاب المنافع . فإن الشرق هو الذي عرفه لذاته كظهر
من مظاهر العبقرية الأدمية المفكرة في تعطشها لمعرفة
الحقيقة العليا . وهنا كل نبيل العلم وسمو غايته . هذا
العلم الخالص أورثته أفريقيا وآسيا فتسأها الشقراء
أوروبا ، سبائك ذهبية وأحجاراً كريمة من الزمرد
والفيروز والياقوت : فاحتفظت الفتاة ببعضه وجعلته

حلياً ليهربها ، وهنا كل جمال أوروبا الفكرى الباقى .
أما بقية الكنوز فصهرتها وصكتها نقوداً تضمها فى
المصارف ، وصنعت منها أغلالاً تستعبد بها العالم . ومع
ذلك فهى لم تعرف التحلى بالعلم لذاته إلا منذ عهد
قريبة ؛ لا تنس أن أوروبا هى الوحيدة التى أعدمته فى
يوم عاماءها حرقاً وأهمتهم بالسحر والجنون ، وخنقت
حرية الرأى حتى فى شئون الأدب والفن . وجعلت من
المسيحية التى تبشر بالحب والسلام سلاحاً للفتك أمام
محاكم التفتيش . ولكن أوروبا اليوم أبرع قليلاً من
ذى قبل . فهى تجيد إخفاء حيوانيتها تحت ريش صناعى
يمثل أجنحة ملاك سماوى . إن أوروبا اليوم فى أزمة
شديدة . لاشك أنها أخطر أزمة مرت بها . ذلك أنها
قد تذهبت إلى أن مازعمتها مدنية عظيمة قد أفلس وظهرت
من تحت الريش أنياب الخنازير البرية . وقد فهم الشرق
أن فتاته ليست إلا غانية خليعة لا قلب لها ولا ضمير .

وليست لها قيمة روحية ولا خلقية . وأن مآلها السقوط
ممزقة الجسد تحت موائد العربدين في ذلك الحان الذي
تشرف نوافذه من جهة . على المحيط الأطلانطي . ومن الجهة
الأخرى على البحر الأسود . أيها الصديق . إلى الشرق
إلى الشرق ! فلنرحل معاً إلى الشرق . إن أجل ما بقي
لأوروبا إنما أخذته عن الشرق . لم تعد حياتي هنا . ماذا
نصنع الآن ههنا ?? حتى راحة النفس لا نجد لها هنا . إن
العودة إلى الهدوء والصفاء هي في عودتنا إلى فضاء
الصحراء . هناك نستنشق بملء رئتيننا . لادخان المداخن ،
ولكن رائحة السماء . هناك لا نجد تلك السحب الكثيفة
التي تحول بيننا وبين الله ؟ هلم بنا . لقد يئست . إن قليلاً
من الأمل كان قد داعب قلبي إذ تذكرت منذ أيام حكاية
عودة الشاعر الفرنسي « كوكتو » إلى حظيرة الكنيسة ،
وأنت لا شك تعرف حكاية هذا الشاعر القلق . لقد
استنفد كل حياة الفكر والفن . وعرف المجد الأدبي ،

وانغمس في نهر الحياة الالهية ، وبلغ كل ما يستطيع
أن يبلغه الفكر الشارد وحده بعيداً عن الايمان . فإذا
حدث ؟ تملكه السأم من الحياة ، وشعر بالنقص في
كيانه ، وبالقراغ في قلبه . فضاقت ذرعاً بأيامه ، فألقى
بنفسه القلقة في أحضان « الأفيون » لعله يجد فيه الشفاء
والراحة . استمع إليه يقول في خطابه إلى صديقه
الفيلسوف « جاك مارييتان » : « إن الأفيون ليحملنا
إلى نهر الموتى ، إنه يفسخنا ويحولنا إلى شبه مرج من
المروج اللطيفة ، ويجعل من جسدنا ليسلاً تتزاحم فيه
النجوم كأنها النمل ، ولكن سعادتنا هي سعادة في
مرآة ، نغدو فيها من رؤوسنا إلى أقدامنا محضاً كذوبة
وإذا نحن كالمومياء : تقف آلة الأجسام وتأبى الأعضاء أن
تطيع . لا تؤثر فينا تقلبات الطقس وما نعود نشعر
ببرودة أو حرارة . لقد كان مصورون نابلي زينون حيطان
المساكن بما يسمونه « خدعة العين » . إن الأفيون

ليس إلا مصوراً طريقته « خدعة الروح » . إنه يزين
حيطان الحجره الى أدخُن فيها بتصاویر تلذلى وتُريح
نفسى . إن الأفيون هو طارداً حيرته والقاق . إن الأفيون
ليُشبه « الدين » بالقدر الذى يشبه فيه « المشعوذ »
« المسيح ! .. الخ الخ . وأشرف « كوكتو » أخيراً
على الدمار . إلى أن ألقى بنفسه فى أحضان الدين . هنا كان
أملى الأخير أنا أيضاً . . إذ اعتقدت أن الأوروبى المفكر
الذى شب على هذه المدنية يستطيع أن يعود إلى الأيمان
الحقيقى فى الوقت المناسب . إلى أن قرأت هذه الرسائل
المتبادلة بين « كوكتو » و « ماريان » . فخامر فى الشك .
إنها رسائل على غاية ما تكون البراعة فى الأسلوب
وانقاد الذكاء ، ولكنها ليست أكثر من « قطع أدبية » .
آه ، إنهم يكتبون « أدبا » هؤلاء الناس حتى يوم
يوهوننا أن المسألة مسألة حياة أو موت إن الفرق
بين عبقرية الغرب الروحية وبين عبقرية الشرق الروحية ،

لكالفرق بين « المشعوذ » و « المسيح » ! خذ هذين
الكتيبين اقرأهما واخبرني هل تصدق أن هذين
الرجلين يعتقدان حقاً بالسماء وما فيها من جنّة و نار ،
اعتقاد ذلك المسلم الذي قلت لي الآن إنه ألقى البلح
من يده . وجرى يقدم نفسه للقتل . واعتقاد أولئك
الشهداء من المسيحيين الغابرين ! إنني أفهم أن يتكلم
هؤلاء الشعراء الأوربيون عن الدين والمسيح كلاماً كله
إعجاب خالص . إنني أيضاً أعجب الإعجاب الخالص بالأديان
ولكن الذي أريد ليس مجرد الإعجاب . كما نفعل أمام
قطعة فنية من عمل عطاء الفن أو الأدب أو الفكر ،
لست أريد الإعجاب الناشئ عن آلتنا المفكرة وما فيها
من بضاعة ثقافية مكتسبة أو موروثة ، إنما أريد الإيمان ،
إيمان القلب . الإيمان الأعمى بأن المسيح في السماء وأن
الله هو الله كما يتصوره البسطاء . وأن الجنة هي الجنة
كما يتخيلها أولئك الذين قال فيهم المسيح : « طوبى

للمساكين بالروح ، لأن لهم ملكوت السموات !
طوبى للأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله ! .
آه يا صديقي ، يا أخي . إن أوروبا كلها الآن ليست
إلا رجلا مفكراً فلقاً حائراً يتعاطى الأفيون . إن «جان
كوكتو» هو كل «أوروبا» في أزمتها الحاضرة . انتهت
أوروبا . ولا شيء من داخلها يستطيع إنقاذها . لأن كل
شيء يصل إلى «عقليتها» هذه . تحوله إلى أدب وأسلوب
وزيف وكذب . إنما الانقاذ من الخارج ، إنما النجاة في
القضاء . . إلى هناك . . إلى الشرق . . قم معي . . إلى الشرق
افتح هذه النافذة . . دع الهواء يدخل ، إخلع عنى هذه
الأردية الثقيلة . هذه السحب الكثيفة تحجب عنى ...
وامتلاً فم الروسي برعوة وزبد . ووضع يده على
عنقه يمزق قميصه كأنما هو يحترق . واصفر وجهه محسن .
ولم يبد حرا كما . . ثم تنبه قليلاً من ذهوله ، فصاح
صيحة مدوية ، وأسرع إلى الباب يطالب النجدة . . .

الفصل العشرون

اعتكف بحسن بضعة أيام . علم خلالها أن صحة
إيفانوفتش غاية في السوء . وجاءه صاحب التزل ذات
صباح يطرق عليه بابه . ففتح له منفزعا :

- ما الخبر ؟

- صديقك الروسي ...

- مات ؟

- لم يمت بعد ، ولكنه يسأل عنك اليوم منذ

طلعت الشمس ..

- وكيف حاله ؟

- لست أدري ، هو يزعم أنه اليوم بخير . ولكنه

مريض بذات الرئة . كما تعلم ، داء لا يرحم ... أتذكر

ذلك اليوم عند ما صحت مستنجداً ؟ لقد أنعمي عليه أيضاً

في المساء ، وكان في حالة احتضار حقيقية فاستدعينا له
القسيس . ولكنه ما فتح عينيه قليلا وأبصره حتى صاح
فيه وفينا بصوت خائر لكنه نأر : « أبعدوا عني هذا
السكير بوجناته الموردة ! » . وتصور عندئذ أي حرج
وقعنا كلنا فيه ! .. على أي حال ، قد بلغتك يا مسيو
محسن ، ولك أن تذهب إليه إذا شئت ، أو لا تذهب ...
وخرج صاحب المنزل . تاركا الفتى في مكانه مطرقا
مفكرا . ولم يجد محسن بدا من الذهاب إلى إيفان على
الفور ، فقام ومضى إلى حجراته ، فوجده في فراشه
يتأمل أشعة الشمس الداخلة من النافذة . وتنبه الروسي
لحركة دخول محسن . فوجه بصره إليه . وأشار له بعين
باسمة إلى شعاع ذهبي انعكس على الفراش :

- ما أجمل الشمس اليوم !

- نعم ...

قالها الفتى في غير أكثرات وهو يتأمل وجه الرجل

الشاحب ، وفرحه الذى يشبه فرح الأطفال الساذج
بهذا الشعاع فوق سريره . وساد صمت . قطعه المريض
يشبه همس :

- آه . النور ... النور يشرق من بلاد الشمس .
ليغرب في بلاد الغرب !

ثم التفت الى محسن وقال له فى صوت متداع :
- اقترب يا صديقى ، وأنهضنى قليلا .. فانى سئمت
طول الرقاد ! ..

فتردد القى خوفا عليه :

- إني أخشى ..

- لا تخش شيئا . ضعنى بجوار النافذة . أعنتى
على الجلوس حيث يفمرنى نور الشمس .

فلم ير محسن بدأ من تلبية رغبته . فساعده على
القيام ومشى به الى ظهر صندوقه الخشبي حيث وضعه
عليه وضعا . فقال الروسى وهو يستنشق الهواء بما بقى
له من رئتين :

— شكرًا لك... أيها... الصديق .
ثم أمسك بي — محسن بين يديه ونظر إليه
طويلاً وقال :
— أتعاهدني ؟
— على ماذا ؟
— أن نذهب معاً إلى .. الشرق ؟
فتردد الفتى قليلاً ثم نظر إلى كيان الرجل الواهي :
— نعم ، عند ما تسترد كل صحتك .
— إنني أشعر اليوم أنني قد شفيت ، ان صحتي اليوم
تسمح لي أن أسافر ، اليوم بالذات . اسمع : ان لدى في
هذا الصندوق مبلغاً من المال ادخرته يكفي نفقات
السفر . وسأخرج اليوم أبحث عن مشتر لهذه الكتب
وهذه الأمتعة ... لست في حاجة إلى كتب بعد اليوم ،
إنما أنا في حاجة إلى ... إلى هواء ... وفضاء ... وفضاء ...
وخشى محسن أن تنمو الفكرة في رأس هذا

المريض ، فيرتكب حماقة تسمى ، الى صحته . فلم يبدحمسماً
لما قال . . . ثم أراد أن يثنيه عن عزمه فقال :

— أرى أنك تَقَسُّو في الحكم على الغرب يا مسيو
ايفان . مهما يكن من أمر . فان أوروبا قد وصلت بالعلم
البشرى الى قم لم يصل اليها .

فلفظ الرجل ضحكة سخرية :

— من قال لك ذلك ؟ أتعرف ماهو العلم أيها الفتى ؟

ان العلم « عامان » : العلم « الظاهر » والعلم « الخفي » .
وان أوروبا حتى اليوم طفلة تعبت تحت أقدام ذلك « العلم
الخفي » الذي كانت حضارات أفريقيا وآسيا قد وصلت به
حقيقة الى قم . أما العلم « الظاهر » وحده فهو كل ميدانها .
الا أن طاقة الآلة المفكرة محدودة ، وان كل وسائل العلم
الظاهر هي أعضاءنا وحواسنا الظاهرة وتلك ليس لها
من الدقة ما يقتنص غير الظواهر التافهة من ظواهر
الطبيعية والسكون . مهما تعاونها الآلات والعدسات ...

كل هذا العلم الحديث الذي يبهرك ليس في حقيقته غير
«طريقة» و «أسلوب» . . . نعم إن الجديد حقاً في العلم
الأوروبي الحديث هو «أسلوب» التفكير المنتظم «وطرائق»
البحث العقلي المرتَّب . أما أكثر من ذلك فلا .
وأما أن نسمى مجرد استكشاف بعض خواص الطبيعة
بجواسنا وصولاً إلى قم المعرفة البشرية . فتلك هي
السُّخْرِيَّة الكبرى . إن قم المعرفة البشرية هي في مجاهل
ذلك «العلم الخفي» الذي لم يدخل قط عقل أوروبا . لأن
وسائلها كما قلت لك لا تهيئها إلا لفهم مظاهر الحياة
السطحية . ولا أقسو عليها إذا استعملت كلمة «السطحية»
لأنها هي الحقيقة . إن عين العلم الأوروبي لا تقع دائماً
إلا على سطح الأشياء . كسكل عين . إنها مدنية لا تدرك
ولا تعترف إلا بما يقع تحت لمسها وبصرها ومنطق
عقلها ، ولا تقوم إلا على عالم المحسوس . وإني أُصرِّحُ
على أن هذه المدنية الكبيرة إن هي إلا «مدنية ناقصة»

لأنها لا تعرف الحياة إلا في « عالم واحد » . أريد أن
أهرب إلى البلاد التي تعيش في « عالمين » تلك البلاد
التي ارتفعت فيها المعرفة البشرية إلى قمم « العالمين » .
وسكت الرجل قليلا ، ولمح بحسن التقب على وجهه
فقال له :

- لا تتكلم كثيراً . أرجو منك ذلك . حَسْبُنَا
ما حصل في المرة السابقة ...

- لن أتكلم . كفى كلاما . ولكنني سأفعل ،
إلى العمل ...

ثم تحامل ونهض قليلا مستنداً إلى الحائط فأسرع
إليه محسن :

- إلى أين ؟

- أرتدى ثيابي ، لأخرج فأبيع هذه الكتب ؛
وأهياً للسفر ...

- ليس الآن ، ليس الآن .. إنك مُتَعَب .

- دعنى ، أيها الشاب ، سنذهب إلى الشرق ،
أريد أن أرى جبل الزيتون وأن أشرب من ماء التليل وماء
الفرات وماء زمزم وماء . . .

- وتترك هذه البلاد . . . وهذه الحضارة . . . وتترك
« يتهوفن » . آه يا مسيو إيفان ! إنك تستطيع أن تقول
كل شيء عن الغرب فأسمع لك . ولكن « يتهوفن »
ها هو ذا نبي حقيقى . ها هو ذا رسول للمحبة والسلام
خليق أن يرفع مجد الغرب أبد الأبدى . . . وأن يطهر
الانسانية وأن ينير القلوب . . .

فالتفت الروسى إلى محسن قائلاً فى قوة :

- يتهوفن ! يتهوفن . نعم يتهوفن . وهاندل ،
وموزار ، وهایدن ، وجان سباستيان باخ : وميكل
آنج : ورفايل . ورمبرانت . وباسكال : وسان توماس
وكوبرنيك وجاليليه ودانتى . . . الخ الخ كل أولئك إن هم
إلا زهرات يانعات فى حديقة المسيحية الغناء !

ثم وضع يده على كتف محسن المطرق السام :
— هلم إلى المنبع ! إلى المنبع ؟ إلى هناك .. إلى هناك .
ثم ترك الفتى في اطرافه . ونحامل متعكناً على الحائط
يبحث عن حذائه وسُتْرته . . . وصرت في رأس محسن
خواطر وبدت له صور من الشرق اليوم ، فرفع رأسه
وقال لصاحبه الروسي :

— ألم تر الشرق قط من قبل ؟!
فأجاب الرجل وهو يضع حذاه في إحدى قدميه :
— لم أره قط الا في أحلامي ... ولكنني لن أموت
قبل أن أراه ...

فأطرق محسن مرة أخرى . وهم أخيراً أن يرفع
رأسه ليقول لايفان :

— مهلاً ، مهلاً أيها الصديق ! أن ذلك المنبع الذي
تريد أن تراه . وتلك الأنهار التي تريد أن تشرب منها
قد تسممت كلها . ان « الفتاة الشقراء » يوم حققت

نخذها بالمورفين السام لم تترك أوبوها سالمين . لقد قضى
الأمر ، ولم يعد هنالك نبيع صاف . فان الزهد قد ذهب
كذلك من الشرق . وان رجال الدين هناك يعرف بعضهم
اليوم كذلك اقتناء السيارات وقبض المراتبات وتورد
الوجنات من النعم والمتع . وأن ثياب الشرق الجميلة النبيلة
هي اليوم خليط عجيب من الثياب الأوروبية يثير منظره
الضحك كما يشيره منظر قرودة اختطفت ملابس
سائحين من مختلفي الأجناس وصعدت بها فوق شجرة
ترنديها وتقلد حركات أصحابها . وان التعليم العام للقراءة
والكتابة وحق التصويت والبرلمان ، وكل هذه الأفكار
الأوروبية قد أصبحت في الشرق اليوم مبادئ ثابتة
يؤمن بها الشرقيون إيمانهم بل أكثر من إيمانهم بمبادئ
الآديان وانهم السهل أن تقنع شرقيا اليوم بأن دينه فاسد
ولكن ليس من السهل أن تقنعه بأن «الصناعة الكبرى»
هي عجلة «إبليس» التي يقودها الإنسانية الى الدمار...
أو أن التعليم العام لرموز الكتابة نوع من الهراء

وانك قد تستطيع اليوم أن تقتلع من رأس الشرق
عظمة « السماء » . ولا تستطيع مطلقاً أن تقتلع منه عظمة
« العلم الأوروبى الحديث » ، وانه لمن اليسير أن تسفه عند
الشرق الآن « رسالة » الانبياء ، ولا يمكن أن تُسفه لديه
« رسالة » القوة المادية الحديثة ! بل من العجيب أن هذه
الأفكار والمبادئ ، التي تُعتبر في الشرق اليوم ثابتة ثبوت
الآيات المنزلة . قد يناقشها الأوروبيون أنفسهم
وينقضونها ، وهي ما تزال حافظة عندنا كل قوتها .
وأن المدفع قد ينطلق في أوروبا ضد بعض هذه الأفكار
ونرى ضوء لهبه ولكن الصوت لا يصل الى آذاننا
لا لبعده المسافة بل لأن آذاننا لا تسمع . وقلوبنا لا تعى .
لقد كانت « الحُكْمَةُ » شديدة الفعل والأثر . نعم ، ولا أحد
يدرى هل أوروبا حققت الشرق بأفيون خالص أو بأفيون
ممزوج بسم نافع . سرى وما زال يسرى في شرايينه
يقتل كل بذور المثل العليا الشرقية في النفوس . فشبان

الشرق اليوم عندما أرادوا أن يتخذوا لهم مثالا للرجولة
والبطولة لم يتجهوا شطر «غاندى» ولكنهم اتجهوا
بعيون كأنها منومة تنويم المغنطيس شطر «موسوليني»
ويوم أرادوا أن يجعلوا للتقشف والجلد والخشونة لباسا
لم يضعوا على أبدانهم العارية القوية رداء بسيطا من
القطن يصنعونه بأيديهم ، لكنهم ارتدوا القمصان
الأوربية ذات الألوان ! إذن حتى أبطال الشرق قدماءوا
في قلوب الشرقيين !

نعم ، اليوم لا يوجد شرق ! ! إنما هي غابة على
أشجارها قرود تلبس زى الغرب على غير نظام ولا
ترتيب ولا فهم ولا ادراك .

لم يجرؤ محسن أن يقول مثل هذا الكلام لصاحبه
الروسى . فقد أدرك أن هذا الرجل الذى لم يستطع
شئ فى الغرب أن يشفى نفسه القلقة الحائرة ، قد
وضع كل أماله فى الشرق . وقد صنع للشرق فى رأسه

صوراً عظيمة هي كل أملة الباقي ، وان كشف الحقيقة
لعينه الآن أقطع طعنة يقتل بها هذا المسكين . فتركه في
خيالاته . ورفع الفتى رأسه أخيراً ليرى ماذا يصنع
صاحبه ، فألفاه ملقى على ظهر الصندوق ورأسه الى
الحائط وفي إحدى قدميه الحذاء . فأخذه روع لمرآه
وأسرع اليه :

— ماذا بك ؟ مسيو ايفان ؟ ماذا بك !

فقال الرجل في صوت كالخشرجة :

— فات الأوان !

— أى أوان ؟

— اذهب أنت وحدك ... الى ... هناك ...

— أستدعى لك الطبيب ، يا مسيو ايفان ؟

أطلب لك ...

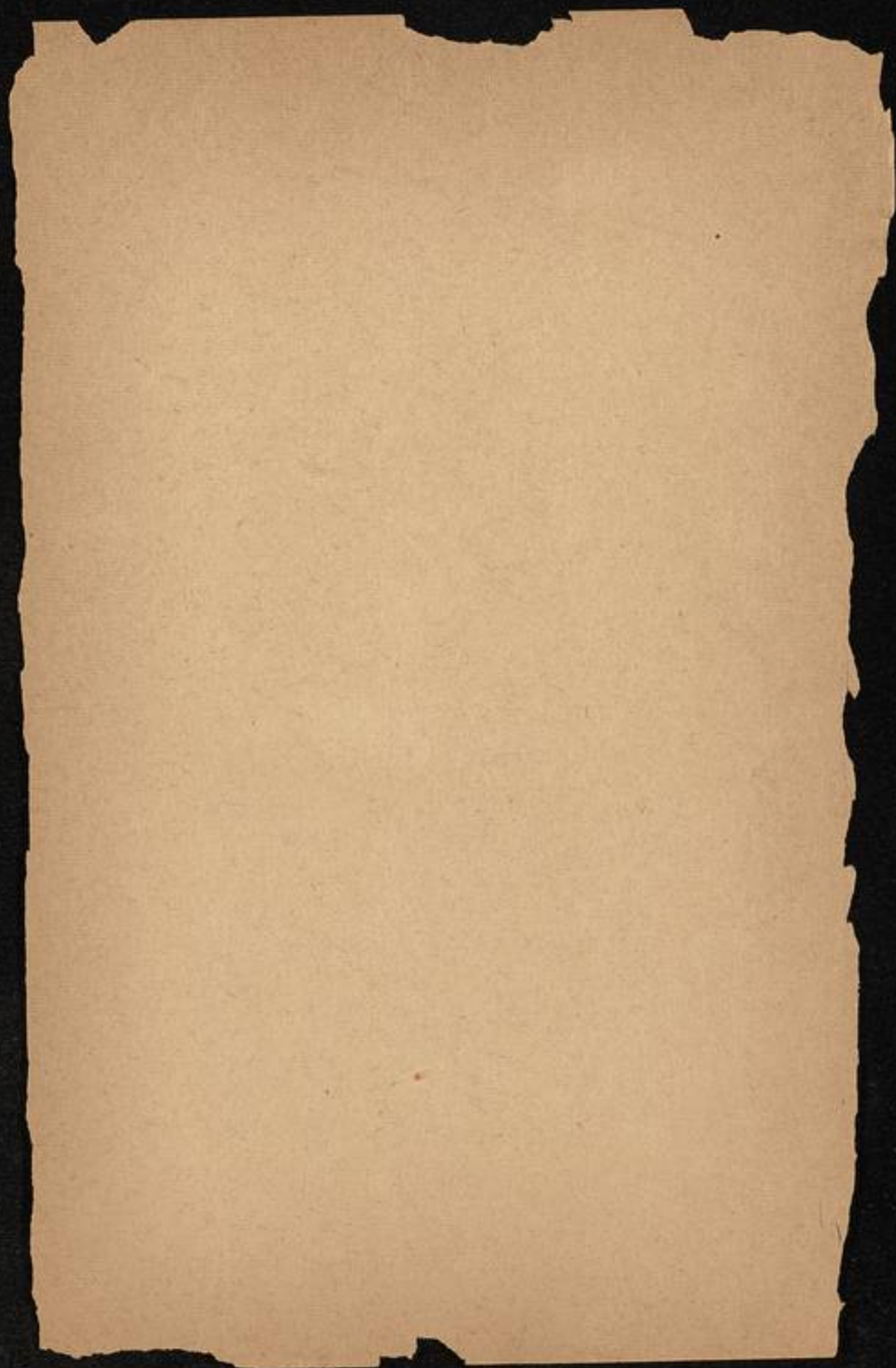
— لا .. لا تفعل شيئاً .. انى .. أعرف نفسى ..

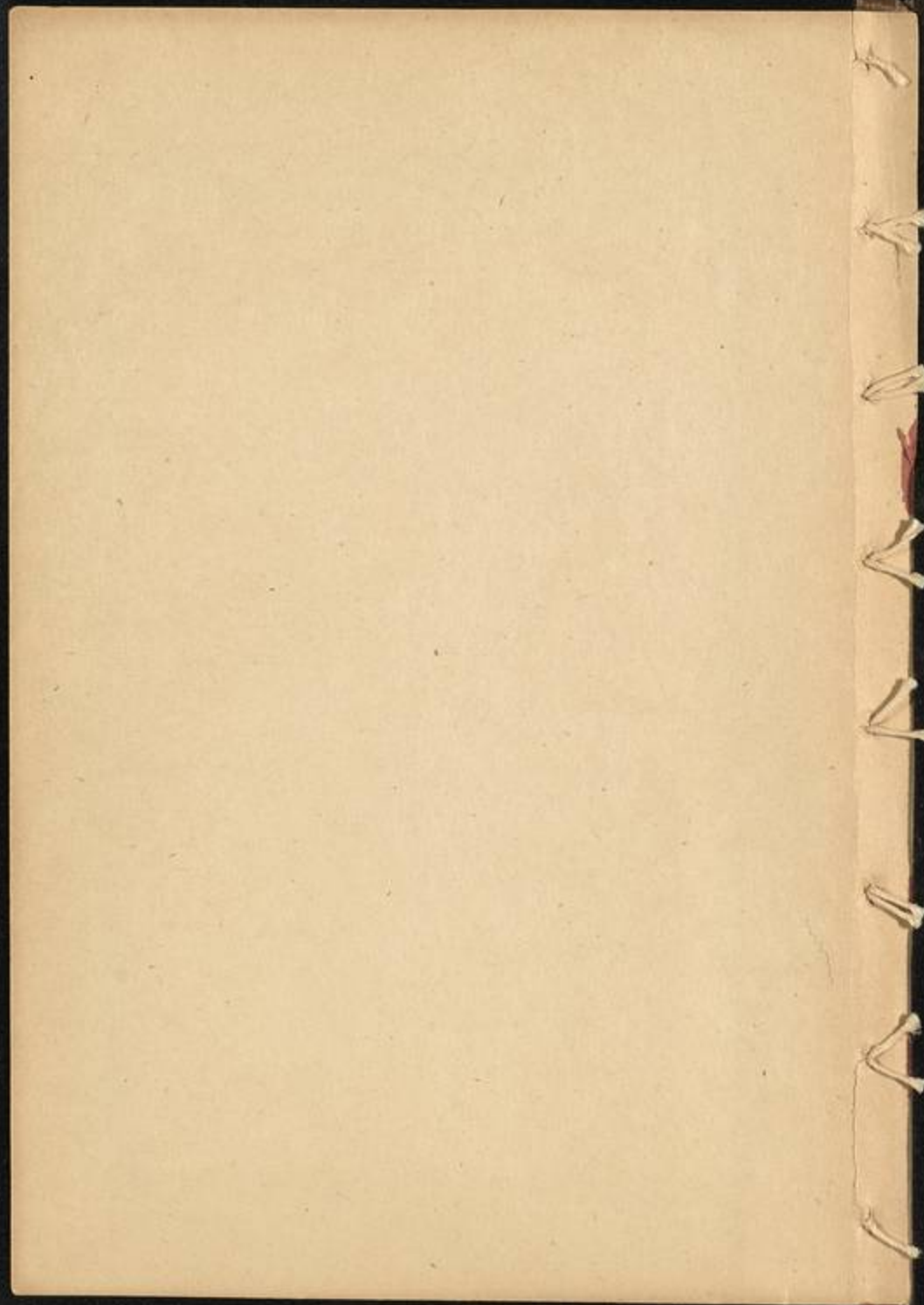
ومال رأسه وانطفأ النور الباقي من عينيه ، لكنه

تحامل وقال في صوت لا يكاد يسمع :

— اذهب أنت يا صديقي ... الى هناك ... الى

النبع ... واحمل ذكرى وحدها معك ... وداعاً ...





893.7H127

X

09715215

AUG 7 1947

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58870237

893.7H127 X

Ustur min al-sharq.

RECAP